علي الطَّنطاوي

حكاياتٌ من التاريخ



دار المنارة

حكايات من التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

عَلي الطَّنطاوي

حكاياتٌ من التاريخ

طبعة جديدة

صحّحها وضبطها بالشَّكْل حفيدُ المؤلف

مجاهِد مأمون ديرانيّة

دارُ المنارة
للنشر والتوزيع

ⓒ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطنطاوي، علي مصطفى
حكايات من التاريخ / علي مصطفى الطنطاوي
ط٣ - جدة، ١٤٤٢هـ ١٨٨ص ؛ ٢٢×١٥سم
١-القصص التاريخية أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٨٧٣ ١٤٤٢/١١١٣٦

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١١١٣٦ ردمك ٣-١٩-٨٣١٢-٦٠٣-٩٧٨

طبعة دار المنارة الثالثة
٢٠٢١



أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية

هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨

info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

مُقَدّمَة

هذه «حِكاياتٌ مِن التّاريخ». ومَنْ مِنّا لا يُحِبّ الحِكايات؟ ومَنْ لا يَذْكُرُ أيّاماً مِنْ حَياتِهِ كانَ يَسْعَى فيها إلى جَدَّتِهِ العَجوزِ، يَلْتَصِقُ بِها أمامَ المَنْقَلِ في لَيالي الشّتاءِ ويَسْأَلُها أنْ تَحْكِيَ له حِكايةً. فتَتعَلَّلُ هِيَ وَيَتَوَسَّلُ هُوَ، حَتّى إذا اسْتَجابَتْ وَبَدَأتْ بالفاتِحَةِ التي لا بُدَّ منها لِكُلِّ حِكايَةٍ: "كان يَا مَا كان، كان في قَديم الزَّمان..." تَجَمَّعَ وتَحَفَّزَ، وصارَتْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنْ جَسَدِهِ أُذُناً تُصْغي وَقَلْباً يَعِي، يُغَالِبُهُ النُّعَاسُ وَهو صَابِرٌ يَتَرَقَّبُ نِهايَةَ عَلاءِ الدِّينِ وفَطْمَةَ الدِّينارِيَّةِ والأَخَواتِ الثَّلاثِ والشّاطِرِ حَسَن.

ويَكْبَرُ الطِّفْلُ، ولكنّ الحَنينَ إلى الحِكاياتِ والقِصَصِ يَكْبُرُ مَعَه، فهو يَتَتَبَّعُ الأخْبارَ ويَقرأُ القِصَصَ ويَنْظُرُ في صُحُفِ التّاريخ، كُلُّ ذلك لأنّ حُبَّ الحِكاياتِ وذِكْرى الجَدَّةِ والمَنْقَلِ لا تَزالُ حَيَّةً في نَفْسِهِ، مَهْما بَلَغَ مِن العُمُر.

ولا أدْري: لِمَ لَمْ يَنْتَفِع المُعَلِّمونَ والمُرَبّونَ بهذا المَيْلِ المُسْتَقِرِّ في كُلِّ نَفْسٍ فيَجعلوا دُروسَهم ومَواعِظَهُم قِصَصاً وحِكاياتٍ؟ لماذا يَدَعُونَ المَيْدانَ كلَّه لأولئكَ المُفْسِدين الذين

يَسْتَغِلّونَ وَحْدَهُم هذا المَيْلَ فيَنشرون في النّاسِ القِصَصَ المُفْسِدَةَ لِلْخُلُقِ، أو المُفْسِدَةَ لِلْعَقْلِ، كَقِصَصِ السَّحَرَةِ والعَفاريتِ؟

لذلكَ استَجَبْتُ مَسْروراً لَمّا كَلَّفَتْني «دارُ الفكر» بأَنْ أَتَولّى كِتابَةَ هذه السِّلْسِلَةِ مِنَ الحِكاياتِ.

إنّها حِكاياتٌ، ولكنّها تاريخيَّةٌ واقِعَةٌ. وليسَ مَعْنَى هذا أنّي أَفْتَحُ كتابَ التّاريخ وأَنْقُلُ ما فيه، ولكنّ مَعناه أنّي آخُذُ الخَبَرَ التّاريخيَّ أو الواقِعَةَ المَرْوِيَّةَ، فأُخْرِجُها إخْراجاً فَنّياً، ورُبّما زِدْتُ فيها قليلاً أو كثيراً. وربّما كانَ أَصْلُها سُطوراً مَعْدودَةً فجَعَلْتُها صَفَحاتٍ، ولكنّي لا أَخْرُجُ في جَوْهَرِ القِصَّةِ عَن الأَصْلِ عَلى كُلِّ حَال.

وإذا كانَت الجَدَّةُ تَجِدُ الحَرَجَ والضّيقَ كُلَّما سَأَلها الصَّبِيُّ حِكايَةً جَديدةً فذلكَ لأنّ حِكاياتِها قَليلةٌ لا تَعْرِفُ غَيْرَها، أمّا أنا فلَنْ أتَحَرَّجَ ولَنْ أَضِيقَ، لأنّ لَدَيَّ فَيْضاً لا يَنْقَطِعُ مِن هذه الحِكايات.

وسَأَعْرِضُها بأَسْهَلِ لَفْظٍ وأَقْرَبِ عِبارَةٍ، حتّى يَفْهَمَها تِلميذُ الصفِّ الرّابعِ الابتِدائيّ. ومِنَ اللهِ أَبْتَغي العَوْنَ وأرجو الثّوابَ.

علي الطنطاوي

جَابِرُ عَثَراتِ الكِرام

الكريمُ المُفْلِسُ

كانَ في مَدينةِ الرَّقَّةِ أيّامَ سُلَيْمانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ (أيْ مُنْذُ ألفٍ ومِئَتَي سَنةٍ) رَجُلٌ من بَني أَسَد، اسْمُهُ خُزَيْمَةُ بنُ بِشْر.

وكانَ غَنيّاً ذا نِعْمَةٍ حَسَنَةٍ ومَالٍ كثيرٍ، لكنّهُ كانَ ذا مُروءَةٍ وكَرَمٍ وفَضْلٍ على النّاسِ وبِرٍّ بالإخْوانِ، لا يَرُدُّ سائِلاً ولا يَحْرِمُ طالِباً ولا يَقْعُدُ عَنْ مَكْرُمَةٍ.

ولَمْ يَزَلْ على ذلكَ حتّى اسْتَنْفَدَ المَعْروفُ مالَهُ كُلَّهُ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ شَيءٌ، فاسْتَعانَ بإخْوانِهِ، فأعَانُوهُ حِيناً، ثُمّ مَلُّوه، فَعَراهُ القُنوطُ وَتَمَلَّكَهُ اليَأسُ.

فقالَ لزَوْجَتِه: اِلْحَقي بأَهْلِكِ، فإنّي سَأُغْلِقُ عَلَيَّ



بابي وأبقَى في بَيْتي، حتّى يَأتِيَ الفَرَجُ أو أموتَ.

قالَتْ: ما كنتُ لأُصَاحِبَكَ في اللينِ وأُفارِقَكَ في الشِّدَّةِ، وأنا بَاقِيَةٌ مَعَك، إنْ عِشْتَ عِشْتُ وإنْ مُتَّ مُتُّ.

وأغلقا البابَ، ورَاحَا يَتَقَوَّتانِ بِما عِنْدَهُما حتّى نَفِدَ، ولَمْ يَبْقَ عِندَهُما شيءٌ وقَعَدَا يَنْتَظِرانِ المَوْتَ.

الأميرُ النَّبيلُ

وكانَ عِكْرِمَةُ الفَيَّاضُ أميراً على الجَزيرةِ[1]، وكانَ قد لُقِّبَ بالفَيّاضِ لِكَرَمِهِ وفَيْضِهِ، فقالَ يوماً لُجَلَسائِهِ: ما فَعَلَ خُزَيْمَةُ بنُ بِشْرٍ الأَسَديُّ؟

قالوا: ما يَرَاهُ مِنّا أَحَدٌ، ولَعَلَّهُ عَلى سَفَرٍ.

قالَ واحِدٌ مِمَّنْ حَضَرَ: بَلْ هُوَ في البَلَدِ، ولكنّهُ قد انتَهى. لقد دَفَنَ نَفْسَهُ في دارِهِ وأغْلَقَ عليهِ بابَهُ، وحَلَفَ لا يَخْرُجُ حتّى يَموتَ.

قال: وَلِمَ، وَيْحَكَ؟

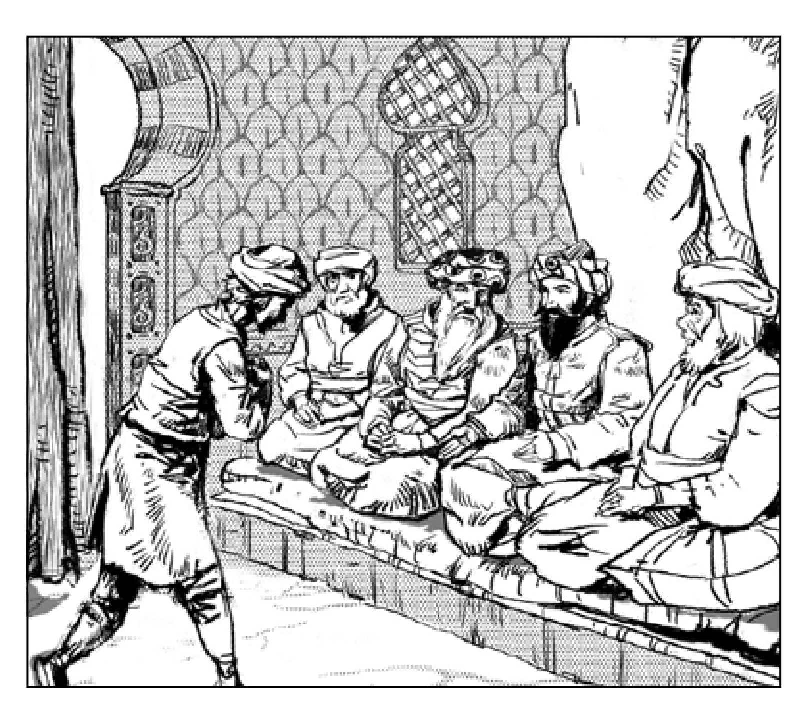
فخَبَّرَهُ خَبَرَه.

قال: أَوَلَمْ يَجِدْ مُسْعِداً أوْ مُواسِياً؟ هل قَلَّ الأغنِياءُ؟

---

(١) «إقليم الجَزيرة» هو الجزء الشمالي من «وادي الرَّافِدَين»، ويضمّ المنطقةَ الواقعة بين دجلة والفُرات شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق وجنوب شرق تركيا، وكان ثُلُثه الشرقي يُسمَّى ديار ربيعة، والثلث الغربي ديار مضر، والثلث الشمالي ديار بكر.

قال: لا أيُّها الأميرُ، ولكنْ قَلَّ الكُرَماءُ الأَوْفِياءُ. إنّ النّاسَ يَتَسابَقونَ إلى بِرِّكَ إذا ضِقْتَ يَوماً وكانوا يَعْلَمونَ أنَّ لَكَ مالاً آتِياً، وأنّهم إذا أسْعَفُوكَ رَدَدْتَ عَليهِمْ مالَهُمْ وَحَفِظْتَ لهم مَعروفَهُم، فإنْ رَأَوْا أنّكَ قد أَحْوَجْتَ حقيقةً ولم يَبْقَ لك مَالٌ يُنتَظَرُ لم يَلتَفِتْ إليكَ منهُم أحدٌ. إنّ الصّداقَةَ عند أكثرِ النّاسِ تِجارةٌ، فهم يُوادُّونَكَ أمَلاً بِمَالِكَ أنْ يَستفيدوا منهُ يَوماً أوْ بِجَاهِكَ أنْ يَستعينوا به، أمّا الحُبُّ في الله فذاكَ ما لا



تَكادُ تَجِدُهُ في النّاس!

قالَ الأميرُ: صَدَقْتَ.

وأمْسَكَ عن ذِكْرِهِ وخاضَ في غيرِ حَديثِهِ، فَعَجِبَ الحاضرونَ، وكانوا يَظُنّونَ أنّهُ يَبْعَثُ إليه بِوَفْدٍ أو يَأمُرُ له بِعَطِيَّةٍ.

ثلاثةُ أيّامٍ بِلا طَعَام

وكانَ قد مَرَّ على خُزَيْمَةَ وامرَأتِهِ ثَلاثةُ أيّام لَمْ يَذوقا فيها شَيئاً. وكانَ مَنظَرُ زَوجَتِهِ وهيَ جائِعَةٌ مُوجَعَةٌ أشَدَّ عليهِ من جُوعِهِ وَوَجَعِهِ. وكانَ يَدفَعُهُ حُبُّهُ إيَّاهَا وشَفَقَتُهُ عَليها إلى الخُروجِ واللجُوءِ إلى واحِدٍ مِمَّنْ كانَ قد طَوَّقَ بَجميلِهِ أعْنَاقَهُمْ أو يُطالِبُ مَنْ لَهُ دَيْنٌ عَلَيْهِم ولم يُؤَدُّوا له شيئاً مِن دُيونِهِ عَليهم، ثُمَّ تَمْنَعُهُ عِزَّةُ نَفْسِهِ وكرامَتُها عليه أنْ يَمُدَّ يدَهُ بالسؤالِ إلى مَنْ كانَ يَمُدُّ يَدَهُ إلَيْهِم بالمالِ، وأنْ يَطلُبَ مِمَّن كانوا هُم يَطْلُبونَ منه، فيُؤْثِرُ أنْ يَموتَ وهو كَريمٌ على أنْ يَعيشَ عِيشَةَ المَذَلَّةِ والهَوانِ.

فمَا مَضَى هَزيعٌ مِن الليلِ حتّى أَحَسَّ قَرْعَ البابِ، فقال لامرأتِهِ: انظُري مَن بِالبابِ؟

قالت: فارِسٌ مُلَثَّمٌ ما يَبِينُ منه إلّا عَيْناهُ.

فذهَبَ ففَتَحَ لَهُ البابَ، فلمّا رآهُ الفارسُ لَمْ يُكَلِّمْهُ





ولَمْ يكشِفْ عن وَجهِهِ اللثام، وإنّمَا دَفَعَ إليهِ كيساً ثَقيلاً يَبدو أنّهُ مُمتلِئٌ بالمالِ، فقالَ له: مَنْ أنتَ؟ وما هذا؟

قال: هذا شَيءٌ ساقَهُ الله إليك، لَيْسَ عليكَ مِنَّةٌ فيهِ لأحَدٍ، وما خَرَجْتُ مِن بَيتي في هذه السّاعةِ وحَمَلْتُهُ إليكَ بنفسي إلّا لأنّي لا أحِبُّ أنْ تَعرِفَني.

قالَ: لا آخُذُهُ حتّى تَقولَ لي مَنْ أنت.

قال: أنا جَابِرُ عَثَراتِ الكِرامِ.

قال: زِدْني إيضاحاً.

قال: لا.

ثمّ ركِبَ الفَرَسَ وَلَكَزَه فانْطَلَقَ بِهِ حتّى لَفَّهُ الليلُ.

الفَرَجُ بعدَ الشِّدَّة

ودخَلَ خُزَيْمَةُ فقالَ لأمرَأتِهِ: قد جاءَكِ الفَرَجُ، فأَوْقِدي السِّراجَ وتعالَيْ فانْظُري.

قالَتْ: إنّكَ لَتَعْلَمُ أنّهُ لَمْ يَبْقَ في الدّارِ نُقْطَةُ زَيْتٍ أُوقِدُ بِها سِراجاً.

فَرَاحَا يَتَحَسَّسانِ ما في الكيسِ فيَجِدانِ المالَ، وراحَتْ تَقولُ له: إنّها لَوْ كانَتْ فُلُوساً لكانَتْ كَثيرةً.

وطَارَ النَّوْمُ مِنْ عُيُونِهِما، فَبَقِيا ساهِرَيْنِ حتّى

طَلَعَ النَّهارُ، فنَظَرا فَبَهَرَ الذَّهَبُ عُيونَهُما، وإذا هي أرْبَعَةُ آلافِ دينار. وبَقِيا حائِرَيْنِ يَتَساءلان: مَنْ يكونُ هذا الرَّجُلُ؟

عِكْرِمَةُ الفَيَّاضُ وَلَذَّةُ الإحْسَان

كانَ الرَّجُلُ هو عِكْرِمَةَ الفَيّاضَ أميرَ الجَزيرَةِ. لمّا سَمِعَ خَبَرَ خُزَيمةَ أخَذَ أربعَةَ آلافِ دينارٍ، فوضَعَها في



كيسٍ، وخرج وَحْدَه لِئَلاّ يُحِسَّ بِهِ أحدٌ، فدفَعَها إليهِ وعادَ فَرِحاً، يُحِسُّ كأَنّهُ أُعْطِيَ أربعينَ ألفاً، بَلْ هو لَوْ أُعْطِيَ الأربعينَ لَمَا فَرِحَ بها فَرَحَهُ بهذه الأربعةِ التي أعطاها.

وفي الدنيا لَذَّاتٌ كثيرة، ولكنّ مِنْ أمتَعِها مُتْعَةً وأعمَقِها في النَّفسِ أثَراً لَذَّةَ الإحسانِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ للمُحْسِنِ إلّا هذه اللَذَّةُ مكافَأةً لَكَفَتْهُ عِوَضاً مِنَ المالِ الذي بَذَل، فَكَيْفَ ولهُ عندَ الله أضعافُ أضعافِها؟

﴿مَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ، في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ، واللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

فَمَا لِلْمُسْلِمِ يَبتغي تِجارَةً تَرْبَحُ فيها مِئَتُهُ خَمْساً أوْ عَشْراً ويَتْرُكُ هذه التِّجارَةَ التي تَصيرُ فيها المِئَةُ سَبعينَ ألفاً؟ ورُبَّما ضُوعِفَتْ فكانَتْ مِئَةً وأربَعينَ ألفاً فَمَا فَوْقَها؟

زوجَةُ عِكْرِمَة

ودَخَلَ بَيْتَهُ مُتَلَصِّصاً يَحْمَدُ اللهَ على أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ. لَمْ يَدْرِ أنّها قد رَأَتْهُ زَوجَتُه. وكانَتْ ابنَةَ عَمِّهِ، وكانَتْ عَاقِلَةً وَفِيَّةً، ولكنْ فيها داءُ أكثَرِ النّساء: الغَيْرَةُ والشُّكوكُ والوَسَاوِسُ. فمَا كادَ يَدخُلُ من البابِ حتّى وَثَبَتْ لَهُ من الظّلامِ، كأنّما هي الشُّرْطِيُّ المُتَرَقِّبُ يَضْبِطُ اللِصَّ، وقالَتْ: أين كُنتَ؟

قال: كنتُ في حَاجَةٍ لي.

قالَتْ: أميرُ البَلَدِ يَخرُجُ وَحْدَهُ في هَدْأَةٍ من الليلِ وهو مُتَنَكِّرٌ؟ لا واللهِ ما خرَجْتَ لِحاجَةٍ، ولكنّ لك زَوْجَةً غَيري فأنتَ تَخرُجُ إليها.

وبكَتْ وشَدَّتْ شَعْرَها، وأَعْوَلَتْ وصاحَتْ: غَدَرْتَ يا عكرمةُ بابْنَةِ عَمِّكَ وتَزَوَّجْتَ عليها!

قال: مَا لَكِ يا امْرَأةُ؟ هل جُنِنْتِ؟ إنّكَ لَتَعْلَمينَ أنّي لستُ بِصَاحِبِ نِساءٍ وليسَ لي زَوجةٌ غَيْرُكِ، وما

خرجتُ إلّا لأمْرٍ لا أُحِبُّ أنْ يَعْلَمَ بهِ أحَدٌ إلّا اللهُ.

قالَتْ: واللهِ لا أرضَى حتّى تُخبِرَني ما هو.

قال: لا أُخْبِرُكِ.

فعادَتْ تُوَلْوِلُ، وقالت: إذَنْ أَذْهَبُ واللهِ إلى بَيْتِ أبي.

فقال: إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعون! أمّا إذْ أَصْرَرْتِ فإنّي مُخْبِرُكِ، ولكنّي مُسْتَحْلِفُكِ بالله أنْ تكتُميهِ ولا تُخْبِري بهِ أحَداً أبداً.

قالَتْ: أحْلِفُ لك.

في ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيامَةِ

قال: أَرَأَيْتِ إذْ نَمشي في الصَّحْراءِ في حَرِّ الهَوَاجِرِ والشَّمْسُ مُتَوَقِّدَةٌ تَلْذَعُ الرُّؤوسَ، كيفَ نَتَمنَّى ظِلّاً، وكَيْفَ كُنّا نَشْتَريهِ لَوْ بِيعَ بِغَالِي الثَّمَنِ؟

لقد ذَكَرْتُ -يا ابْنَةَ العَمِّ- مَوقِفاً لَوْ قِيسَ بهِ

مَوْقِفُنا في الصَّحْراءِ لكانَتْ شَمْسُ الصَّحْراءِ مِنْ بَرْدِها نُورَ القَمَرِ! ذَكَرْتُ مَوْقِفَ الحَشْرِ، وقد دَنَت الشّمسُ حتّى صارَتْ فَوقَ الرؤوسِ، وطالَ اليَوْمُ حتّى بَلَغَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ، وغَرِقَ النّاسُ في العَرَق! هُنالِكَ -يا ابْنَةَ العَمّ- يُنادي المُنادي على رُؤوسِ الأَشْهَادِ وعلى مَسْمَعٍ مِن البَشَرِ جَميعاً، مَنْ كانَ في أَوَّلِ الزَّمانِ ومَنْ كانَ في آخِرِه، قَدْ جَمَعَهُم اللهُ كُلَّهُم، يُنادِي أَصْنَافاً



سَبْعَةً مِن النّاسِ، فيَدْعُوهُمْ إلى أعْظَمِ تَكْرِمَةٍ وأكبَرِ نَعيم، إلى أنْ يَسْتَظِلُّوا بِظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمنِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، مِنهُمْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاها حتّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما أَنْفَقَتْ يَمينُه، فأحْبَبْتُ أنْ أكونَ منهم، فخرَجْتُ بأربَعَةِ آلافٍ...

وقَصَّ عليها القِصَّةَ، ثم سألَها: أَصَدَّقْتِ أَمْ تُحِبّينَ أنْ أحْلِفَ لكِ؟

قالت: بل صَدَّقْتُ واطْمَأنَّ قَلْبي.

خُزَيْمَةُ عندَ الخَليفةِ

وتَجَهَّزَ خُزَيمةُ بهذا المالِ وخرجَ حتّى قَدِمَ على أميرِ المُؤمنينَ سُلَيْمانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ، وكان في الرَّمْلَةِ (في فِلَسطين)، وكانَ صَديقاً له.

رَحَّبَ بِهِ سُلَيمانُ تَرحيبَ الصَّديقِ، ولَمْ يَمْنَعْهُ أنَّهُ كانَ الحاكِمَ المُطْلَقَ فيما كانَ بينَ حُدودِ فَرَنْسا وحُدودِ الصّينِ مِنْ أنْ يُجالِسَهُ ويُحَدِّثَهُ ويَسْألَهُ عَنْ

أَخْبارِهِ، وانْطَلَقَ يَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، حتّى إذا بَلَغَ حَديثَ جابِرِ عَثَراتِ الكِرامِ سألَهُ الخَليفةُ عنه.

فقالَ: ما عَرَفْتُهُ يا أميرَ المُؤمنينَ.

فتَلَهَّفَ سُلَيْمانُ على مَعْرِفَتِهِ وقالَ له: اُنْظُرْ مَنْ يَكونُ لِنكافِئَهُ على نُبْلِهِ وكَرَمِهِ.

ولمّا انتَهَت الزِّيارَةُ سَلَّمَهُ الخَليفةُ مَرْسومَ الوِلايَةِ على «الجَزيرةِ» وعَقَدَ لَهُ اللواءَ عليها.



خُزَيْمَةُ أميرُ الجَزيرة

ذهَبَ مُفْلِساً وعادَ أميراً. وبلغَ النَّاسَ الخَبَرُ، فلمّا اقْتَرَبَ مِن الرَّقَّةِ خَرَجوا يَسْتَقْبِلونَهُ، وخرَجَ معَهُمْ عِكْرِمَةُ.

والنّاسُ مَعَ الدَّهْرِ؛ إنْ أَقْبَلَ على امْرِئٍ أَقْبَلوا عَليهِ وإنْ أَدْبَرَ أَدْبَروا عَنه! لَمْ يَسْتَحْيُوا أنْ يَخرُجوا لاسْتِقبالِ الرَّجُلِ الذي تَرَكوهُ بالأَمْسِ يُغلِقُ بابَهُ لِيَموتَ جوعاً، ومَا بَالَوا بِهِ ولا فكَّروا فيهِ، مَعْ أَنَّ أَيادِيَهُ عندَهُم وَمِنَنَهُ مُطَوِّقَةٌ أعناقَهُم. وكانَ أَكثَرُهُم إعْراضاً عنهُ في مِحْنَتِهِ أَشَدَّهُمْ تَزَلُّفاً لَهُ في نِعْمَتِه! وهذا دَأبُ العَامَّةِ في كُلِّ عَصْرٍ وفي كل مِصْرٍ: أَسْرَعُهُم هُتافاً لِلْمَلِكِ عندَ تَتَويجِهِ أَسْرَعُهُم لَعْناً له عندَ خَلْعِهِ.

عِكرمَةُ الفَيّاضُ في السِّجْنِ

وكانَت العادَةُ في تلكَ الأيّامِ أنْ يكونَ الأميرُ مُطْلَقَ اليَدِ في سُلْطانِهِ، فإذا عُزِلَ كُلِّفَ خَلَفُهُ أنْ

يُحاسِبَهُ ويَسْتَخْلِصَ منهُ الأموالَ التي كانَتْ في عُهْدَتِه.

فدَعا خُزَيمةُ الأميرَ السّابِقَ عِكرمَةَ الفَيّاضَ للحِسابِ، فَفَضَلَتْ عليهِ فُضُولُ أمْوالٍ، فطالَبَهُ بِها فلَمْ يَسْتَطِعْ دَفْعَها، فأمَرَ بهِ إلى السِّجْنِ وضَيَّقَ عليهِ وأَثْقَلَهُ بالقُيودِ.



زوجَتُه في العَذابِ

صبَرَ عِكرِمَةُ على ضِيقِ السِّجْنِ وثِقَلِ الحَديدِ، ولكنّ ابْنَةَ عَمِّهِ لمْ تَصْبِرْ.

وإذا سُجِنَ الكريمُ لَمْ يَكُنْ هُوَ المُعاقَبُ بالسِّجْنِ، ولكنّ المُعاقَبَ المُعَذَّبَ زوجَتُهُ وأولادُه. هو يَتَوارَى وراءَ البابِ فلا يَرَى ولا يُرَى، وهيَ تَحْمِلُ شَمَاتَةَ الشّامِتينَ، وتَحْمِلُ مِنْ مُواسَاةِ بَعْضِ المُواسِينَ ما هو أثْقَلُ على النَّفْسِ مِنْ شَماتَةِ الشَّامِتين.

وكانَ أشَدَّ ما يَمُرُّ على زَوْجَةِ عِكْرِمَةَ قَوْلُ النّاسِ لها: إنّ الأميرَ الجَديدَ رَجُلٌ كَريمٌ، أفمَا لَكِ إليهِ وسيلةٌ؟ ألا تَعْرفينَ صَديقاً لَهُ يُكَلِّمُهُ لِيُخَفِّفَ عَنْ عِكرِمَة؟

وكانَتْ تَعْرِفُ الوَسيلَةَ التي تَبُذُّ الوَسائِلَ. إنّ لدَيها كَلِمَةً واحِدةً تَستطيعُ إذا قالَتْها أنْ تَفُكَّ عَن زَوجِها قُيودَهُ وتُعيدَ إليهِ حُرِّيَّتَهُ ومَجْدَه، هي أنْ تَقولَ لهذا الأميرِ الجَديدِ مَنْ هُوَ جَابِرُ عَثَراتِ الكِرامِ. ولكنّ

زَوْجَها يأبَى عليها أنْ تَقولَها أَشَدَّ الإباءِ، ويُؤْثِرُ الموتَ في السِّجْنِ على أنْ يُظهِرَ حَسَنةً عاهَدَ اللهَ على كِتْمانِها لِتكونَ خَالِصَةً لهُ وَحْدَه. وهيَ قَدْ حَلَفَت اليَمينَ ولا تُحِبُّ أنْ تَحْنَثَ بِها ولَوْ على قَطْعِ رَقَبَتِها.

ومَرَّ شَهْرٌ كامِلٌ وهيَ في أَشَدِّ العَذابِ. ولَمْ يَكُن السِّجْنُ كَسُجونِ هذهِ الأيّامِ، بَلْ كانَ كالقَبْرِ، فيه رُطوبَةُ القَبرِ وظَلامُهُ وفيه القُيودُ الثِّقَالُ.



وذابَتِ المِسْكينَةُ كَمَا تَذوبُ الشَّمْعَةُ، فَرَقَّ لَحْمُها وبَدَتْ عِظامُها، وَثَقُلَ هذا السِّرُّ عَلى قَلْبِها حتّى كأنّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الرَّصاصِ، وكأنّ قَلْبَها كيسٌ مِن الحَرير يَتَمَزَّقُ مِن ثِقَلِها! كذلكَ شَعَرَتْ بِهِ يُمَزِّقُ قَلْبَها.

وكانَتْ بينَ حُبِّها لِزَوْجِها وأَلَمِها لَه وبينَ حِرْصِها على رِضاهُ وبِرِّها بيَمينِها كأنّما هي بينَ حَجَرَيْ طَاحُون!

جابِرُ عَثَراتِ الكِرام

ثمّ اهْتَدَتْ لِوَجْهِ الحيلَةِ، فَدَعَتْ مَوْلاةً لها عَاقِلَةً فَصيحَةً، فبَعَثَتْ بِها إلى الأميرِ الجَديدِ ولَقَّنَتْها ما تَقولُه.

فدخَلَت الجارِيَةُ القَصْرَ وطَلَبَتْ لِقاءَ الأميرِ. قالت: إنّ عندي نَصيحةً لا أقولُها إلّا لَهُ.

فأَدْخَلوها عليه، فقالَ: مَنْ أنتِ وما شَأْنُكِ؟

قالَتْ: لَسْتُ أقولُ إلّا على انْفِرادٍ.

فانْفَرَدَ بها ، فقالَتْ له : هل تُحِبُّ أنْ أَدُلَّكَ على جَابِرِ عَثَراتِ الكِرامِ؟

فوَثَبَ وقالَ : وَيْحَكِ! وهَلْ تَعْرِفينَهُ؟

قالت : إنْ دَلَلْتُكَ عليهِ وكانَ يَحْتاجُ إليكَ ، فماذا أنتَ صانِعٌ بِه؟

قال : أتَسْأَلينَني مَا أنا صانِعٌ به؟ خَبِّريني وسَتَرَيْنَ.



خَبِّريني وَيْلَكِ وعَجِّلي فمَا بَقِيَ مِنْ صَبْري بَقِيَّةٌ. فَمَنْ هو؟

قالت: هو عِكْرِمَةُ الفَيّاضُ.

فَشُدِهَ وصاحَ بها: وَيْلَكِ! أوَاثِقَةٌ أنْتِ أنَّهُ عِكْرِمَةُ؟

قالت: إيْ وَاللهِ.

فقال: مِنْ أيْنَ عَرَفْتِ؟

فَقَصَّتْ عَليهِ القِصَّةَ، فجَعَلَ يَلْطِمُ وَجْهَهُ بِكَفَّيْهِ ويَشُدُّ شَعْرَهُ ويقولُ: واخَجْلَتَاهُ مِنه، واخَجْلَتَاهُ منه ومِن ابنَةِ عَمِّه!

وقفزَ إلى فَرَسِهِ، وقالَ لأهْلِ مَجْلِسِهِ (وَهُمْ وُجُوهُ أهلِ البَلَدِ): الْحَقُوا بي إلى السِّجْنِ.

مُكافَأَةُ المَعْرُوفِ

ودخلَ على عِكْرِمَةَ فَأَكَبَّ على رأسِهِ يُقَبِّلُهُ ويَعْتَذِرُ إليه. وعرَفَ عِكرمةُ أنّ زوجَتَهُ أَفْشَتْ سِرَّهُ،



فَاسْتَحْيا وَنَكَسَ.

وأَمَرَ الأميرُ بالقُيودِ فَفُكَّتْ عنه، ثُمّ مَدَّ رِجْلَهُ وقال لِلْحَدّادِ: ضَعْهَا هنا.

قالَ عِكرمةُ: ماذا تَصْنَعُ؟

قال: أصنَعُ بِنَفسي مِثْلَ الذي صَنَعْتُ بك، لأُكَفِّرَ عن ذَنْبي إليك.



قال: لا واللهِ لا تَفْعَلُ.

وخرجَ خُزَيمةُ بعِكرمَةَ يُقَدِّمُهُ ويُكَرِّمُه، حتّى دخلَ عكرمةُ دارَه. وأراد أن يُوَدِّعَهُ، فقال: لا والله، بَلْ إلى دارِ الإمارَةِ.

وأمَرَ بالحَمَّامِ فأُخْلِيَ، ودَخَلَ مَعَهُ فَخَدَمَهُ بِنفسِه، وأَلْبَسَهُ ثِيابَهُ، ثمّ مَضى بِهِ إلى أميرِ المُؤمنين.

العَوْدَةُ إلى الخَليفةِ

لمّا سَمِعَ سُلَيْمانُ أنّ خُزَيْمَةَ قَدْ عادَ قالَ: أميرُ الجَزيرةِ يَعودُ عاجِلاً ومِنْ غَيْرِ اسْتِئْذانٍ ولا إخْبارٍ؟ ما عادَ إلّا لِحَدَثٍ عَظيم!

ودَعَا بِهِ فقالَ لهُ قبلَ أنْ يُسَلِّمَ: ما الذي أَقْدَمَكَ؟

قالَ: يا أميرَ المُؤمِنينَ، ظَفِرْتُ بِجابِرِ عَثَراتِ الكِرامِ، فجِئْتُك بِهِ لِمَا رأيتُ مِنْ تَلَهُّفِكَ وشَوْقِكَ إلى رُؤيَتِه.

قالَ: ومَنْ هُوَ؟

قال: عِكْرِمَةُ الفَيّاضُ.

فدعَا بِهِ الخَليفةُ وأَدْنَى مَجْلِسَهُ وقالَ: يا عِكْرِمَةُ، لقَدْ كانَ مَعْروفُكَ وَبالاً عليك! خُذْ هذِهِ الرُّقْعَةَ فاكْتُبْ عليها طَلَباتِكَ كُلَّها.

قال: أوْ تُعفيني يا أميرَ المُؤمنينَ؟ فمَا لي مِنْ طَلَبٍ إلّا رِضا اللهِ ثُمّ رِضاكَ.

قال: لا بُدَّ مِنْ أنْ تَفْعَلَ.

فكتبَ حاجَتَهُ، فأَمَرَ بِقَضائِها. ثُمَّ جَمَعَ لهُ الجَزيرَةَ وأرْمينِيَةَ وأَذْرَبِيجانَ ووَلّاهُ عَلَيها كُلِّها. وقالَ له: أَمْرُ خُزَيْمَةَ لك، فإنْ شِئتَ عَزَلْتَهُ وإنْ شِئْتَ أبْقَيْتَهُ تابِعاً لك.

قال: بَلْ يَبْقَى يا أميرَ المُؤمنينَ.

وَبَقِيَا وَالِيَيْنِ حتّى ماتَ سُلَيْمانُ.

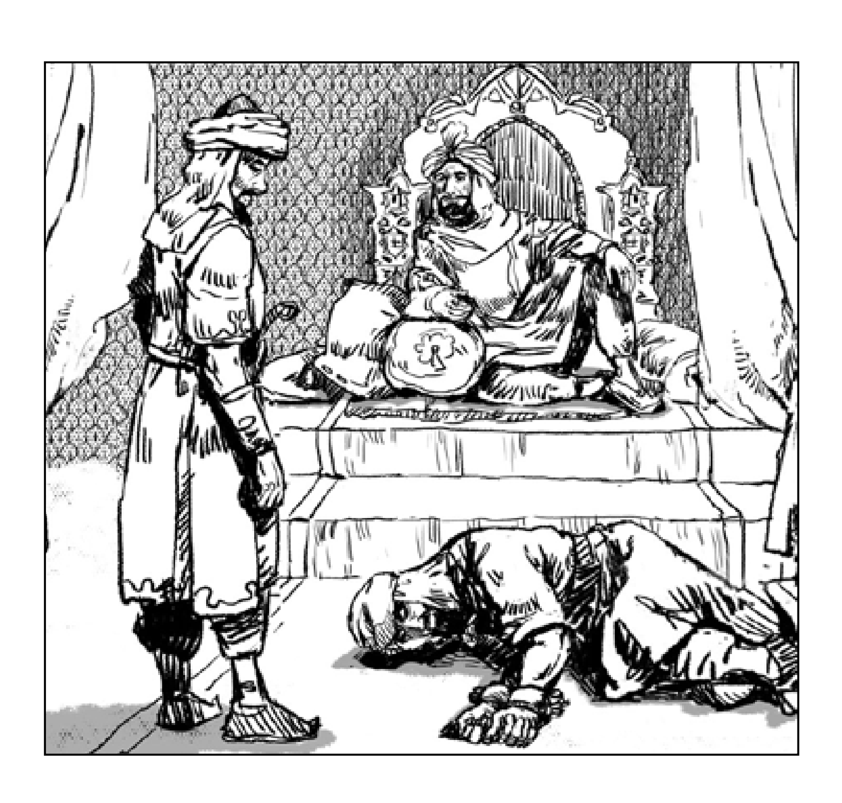
-تَمَّتْ-

المُجْرِمُ ومُديرُ الشُّرْطَة

حدَّثَ العَبّاسُ صاحبُ شُرطَةِ المأمونِ بنِ هارونَ الرَّشيدِ، أيْ مُديرُ الشّرطةِ العامُّ، قالَ:

دَعاني المأمونُ يَوماً عَشِيَّةً، فإذا بَينَ يَديهِ رجلٌ مُكبَّلٌ بِالأغلالِ والقُيودِ، فقالَ لي: يا عبّاسُ!

قلتُ: لبَّيكَ يا أميرَ المؤمنينَ.



قالَ: خُذْ هذا إليكَ واحْتفِظْ بِه واحْرُسْهُ بِنفسِك، وبَكِّرْ بهِ إليَّ في غدٍ، وإيّاكَ أنْ يُفلِتَ منكَ، فإنْ أفْلتَ أخَذْتُكَ بِه.

فدَعوتُ نفَراً مِنَ الشُّرْطَةِ فحمَلوهُ، لأنّهُ لمْ يكُنْ يَقْدِرُ على الحرَكةِ، وخَرجْتُ بِه.

قلتُ: إنْ وضَعْتُهُ في السِّجْنِ بعدَ هذهِ الوصِيّةِ التي أوْصاني أميرُ المؤمنينَ لَمْ آمَنْ أنْ يَفِرَّ فأُؤْخَذَ بِه، وما يَجِبُ إلّا أنْ يَكونَ مَعي في بَيتي وأنْ أتَولّى حِراستَهُ بِنَفسي.

فَلمّا صارَ مَعي في البَيتِ نَظرتُ إلَيهِ، فرَأيْتُ لَهُ هَيئةً وهَيبةً، ورأيْتُ عَليهِ مَلامِحَ سَيّدٍ كَريمٍ لا مَلامِحَ مُجرمٍ أثيمٍ.

فقُلتُ لهُ: وَيحَكَ! مَنْ أنتَ؟

فنظرَ إليّ وأطالَ النَّظرَ، حتّى تَوَهَّمتُ كأنَّ لي بِه مَعرفةً، ثُمّ قالَ: رَجلٌ مِنْ دِمَشقَ.

مُديرُ الشُّرطةِ يَتَذَكَّرُ دِمشقَ

فَما ذَكرَ دِمشقَ حتّى حرَّكَ في قَلبي ذِكرى حَبيبةً إليَّ عَزيزةً عَليَّ، فقُلتُ لهُ: باركَ اللهُ في دِمشقَ، فإنَّ لها عَليَّ مِنَّةً طَوَّقتْ بها عُنُقي. إنَّ في دِمشقَ رجُلاً أحْسنَ إليَّ إحساناً لَستُ أنساهُ ما عِشتُ، وأنا لا أزالُ أرْوي حَديثَهُ لأهْلي ولإخْواني، حتّى صارَ اسْمُهُ على لِسانِ ولَدي وأصْدِقائي، وكُلَّما قَدِمَ مِنْ دِمشقَ قادِمٌ سألْتُهُ عنهُ.

قالَ: ومَنْ هوَ؟

قلتُ: هوَ فُلانٌ. أتَعْرِفُهُ؟

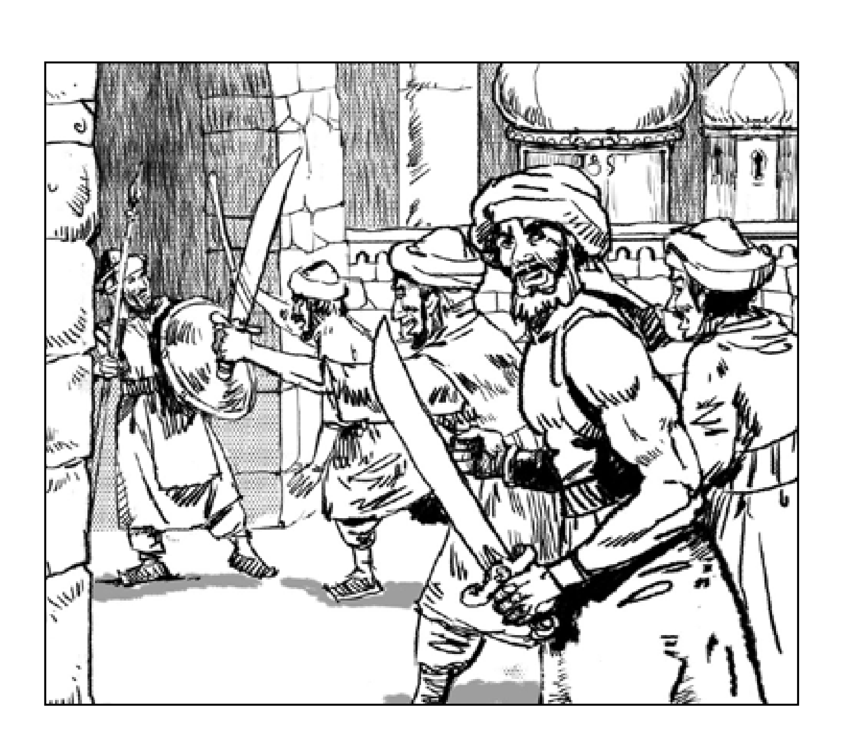
قالَ: نَعمْ، ولكنّي لا أُنبِئُكَ بِخبرِهِ حتّى أسمعَ مِنكَ حَديثَ إحْسانِهِ إلَيكَ.

ثَورةٌ في دِمشقَ

قلتُ: كنتُ كاتِباً لأميرِ دِمشقَ، ودِمشقُ بَلدٌ عَجيبٌ، لأهْلِهِ لِينُ بَرَدَى إذا انْسابَ رَقيقاً لَيِّناً، ولهُم

شِدَّتُهُ إذا فاضَ وثارَ. تكونُ فيها هادِئَ النَّفسِ ناعِمَ البالِ، فلا يُزعِجُكَ إلّا البُركانُ قد انْفجَرَ مِن تحتِكَ. ولَقَد انْفجرَ بِنا مرّةً بُركانُها فَجأةً، فما راعَنا ونحنُ في دارِ الإمارَةِ -وقدْ أمْسَينا وادِعينَ آمِنينَ- إلّا الفِتنةُ في البلَدِ، قد انْدلَعتْ نارُها وتَطايَرَ شَرارُها، والعامَّةُ قدْ حاصَرُوا القَصرَ يُريدُونَ رأسَ الأميرِ ورَأسي.

فهَربَ الأميرُ في زِنْبيل (سَلَّة) تَدَلّى بِها مِنَ





النّافذةِ، وتَدَلَّيتُ أنا مِنَ الشُّرفَةِ بِحَبلٍ، فنَزلْتُ في زُقاقٍ مُظلِمٍ وَراءَ القَصرِ.

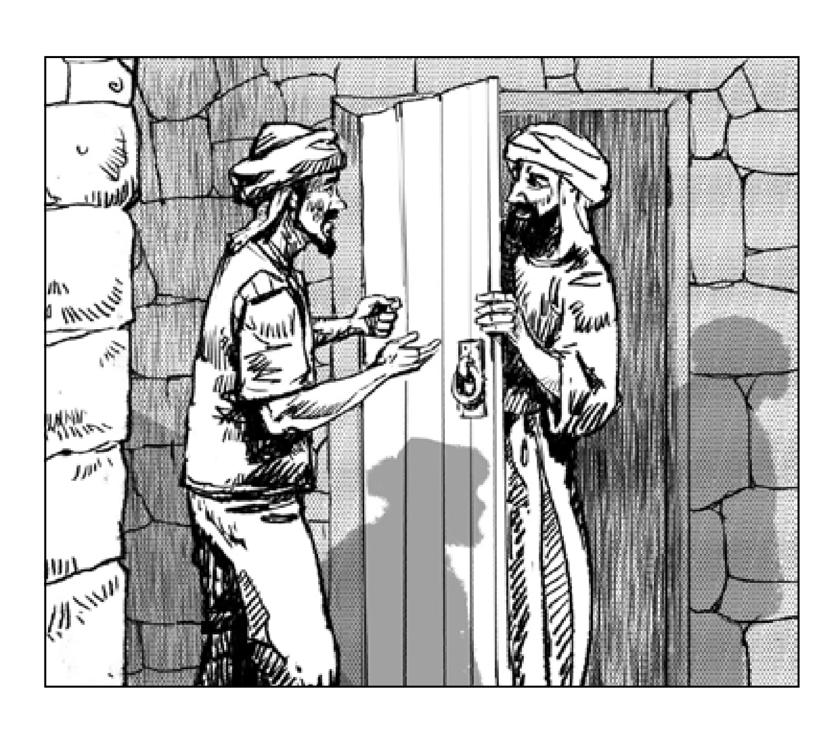
وكانَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَليَّ أنْ لَمْ يَكُنْ لي زَوجةٌ ولا وَلَدٌ، وكُنتُ لمّا هَرَبتُ بِثِياب البِذْلَةِ (ثِيابِ الدّارِ) فجَعلْتُ أمْشي في الأزِقَّةِ الخَوالي، والليلُ مُظلِمٌ وأصْواتُ الثُّوّارِ تَصِل إليَّ، وأنا لا أعْرِفُ لي وِجهَةً.

يَلتَجِئُ إلى الدّارِ

حتّى بَصُرْتُ بِدارٍ كَبيرةٍ، ووجدْتُ على بابِها رجُلاً تَوَسَّمتُ فيهِ الخَيرَ، فقلْتُ لهُ: أنا بِاللهِ ثُمّ بكَ، فهل عِندكَ مِنْ خَيرٍ؟

قالَ: أبْشِرْ.

وأدْخَلَني مِنْ حَيثُ لا يَراني أهلُ الدّارِ، وصَعِدَ بي إلى غُرفةٍ لها سُلَّمٌ ضَيِّقٌ، فلمْ يَعلمْ بي إلّا امْرأتُهُ،

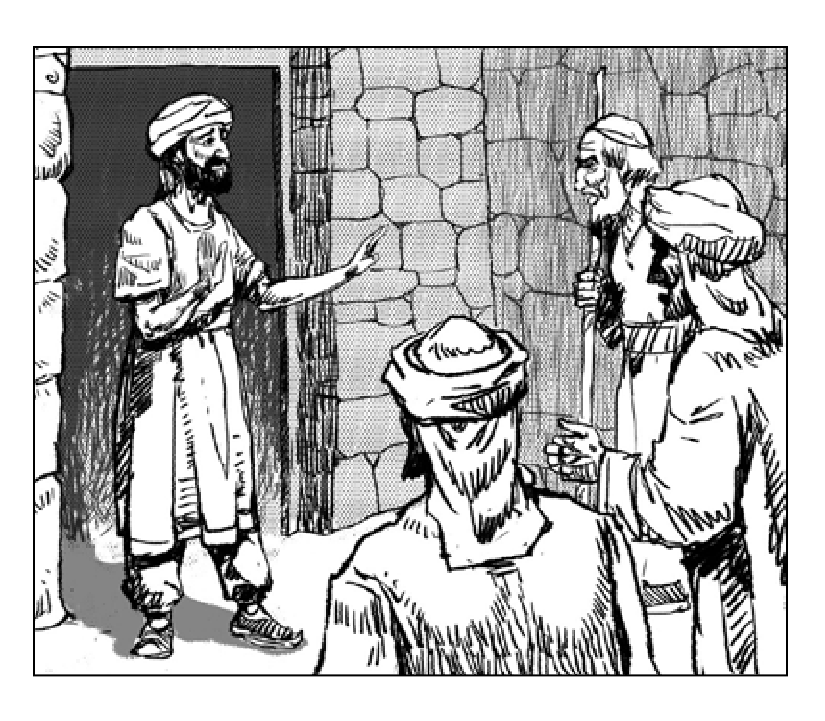


وقدْ حلَّفَها وأخذَ علَيها العَهدَ ألّا تُخبرَ بي أحَداً.

يُفَتِّشُونَ الدّارَ

فما لَبِثتُ إلّا قَليلاً حتّى وصَلَ الغَوغاءُ (أي العامَّةُ) يَزأطونَ ويَصِيحونَ، فسَأَلُوهُ عني فقالَ: ما رَأيْتُ أحداً. قالوا: لا بُدَّ أنْ نُفَتِّشَ الدّارَ. قالَ: دُونَكُمُ الدّارَ، فاخْتارُوا واحداً منكُمْ يَبحَثُ فيها.

فاخْتارُوا رجُلاً، فطافَ فلمْ يَجِدْ أحداً، حتّى



وصَلَ إلى الغُرفةِ الّتي كُنتُ فيها، فَقامَتِ المرأةُ دُونَها وصرَختْ بِهم، فرَجَعوا.

زَوجةُ صاحبِ الدّارِ تُنقِذُهُ

ولَبِثتُ يَومي كلَّهُ وأنا خائفٌ، وهوَ يصعَدُ إليَّ كُلّما رأى غَفلَةً مِنْ أهلِ الدّارِ، يَحمِلُ إليَّ الطّعامَ ويُؤنِسُني.

ثُمّ افْتَقَدتُهُ أيّاماً، وكانتِ المرأةُ هيَ التي تَأتِيني بِالطّعامِ، فتَصعَدُ بِه إلى نِصفِ السُّلَّمِ ثُمّ تَدَعُهُ وتَنزِلُ،



لأنّهُ لا يَجوزُ لِلمَرأةِ أنْ تَخلُوَ بِالأجْنَبِيّ، فأهْبِطُ فآخُذُهُ وَلا أراها.

عَودَةُ الرَّجُلِ

فلمّا كانَ بعدَ أيّامٍ عادَ الرّجلُ وهوَ مَريضٌ مُرهَقٌ، علَيهِ آثارُ الأذى والضُّرّ. قلتُ: ما لَكَ؟

قالَ: وقَعتُ مِنْ دَرجةٍ لي فأُصِبتُ.

الثُّوّارُ يُعَذِّبونَ صاحِبَ الدّارِ

ولكنّي علِمتُ بَعْدُ أنّهُ لَمْ يقَعْ مِنْ درَجةٍ لهُ، ولكنّ الثُّوّارَ قبَضوا عَليهِ لِيَدُلَّهم على مَكاني، فقالَ لَهُمْ: لا أعْرِفُ مَكانَهُ. فجَرَّدُوهُ وجلَدُوهُ وضرَبوهُ حتّى أدْمَوهُ، وطحَنُوهُ طَحناً، فما دلَّهُم علَيّ.

فلمّا أكْثَرُوا علَيهِ قالَ: رجلٌ بَريءٌ ما أعرِفهُ أذْنبَ ذَنباً ولا ظلمَ مَظلَمةً، أفَأَدُلُّكُم علَيهِ لِتقْتُلوهُ وألْقَى اللّهَ بدَمِهِ؟ واللهِ لو كانَ تحتَ قدَمَيَّ ما كَشفتُ لكُم عنهُ، فافْعلوا ما تُريدونَ، وعندَ اللهِ تَجتمِعُ الخُصومُ.



وكانوا قَوماً مُؤمِنينَ، فلمّا ذكَّرهُم يومَ القِيامةِ وخوَّفَهمُ اللهَ خافُوا وذكرُوهُ، فكفُّوا عنهُ وتركُوهُ.

السَّفرُ إلى بَغدادَ

وأقَمتُ عِندَهُ أربَعةَ أشهُرٍ في أتَمِّ عَيشٍ وأكْمَلِ نِعمَةٍ، وهوَ لا يَعرفُ مَنْ أنا ولا يَسألُني عن اسْمي، والعُصاةُ مُسَيطِرونَ على البلَدِ، حتّى هدَأَ الطّلبُ عنّي، فقُلتُ لهُ: لقدْ عَزمتُ على التَّوَجُّهِ إلى بغدادَ.

فقالَ لي: إنّ القافِلَةَ تخرُجُ إلى بَغدادَ بعدَ ثَلاثةِ أيّامٍ.

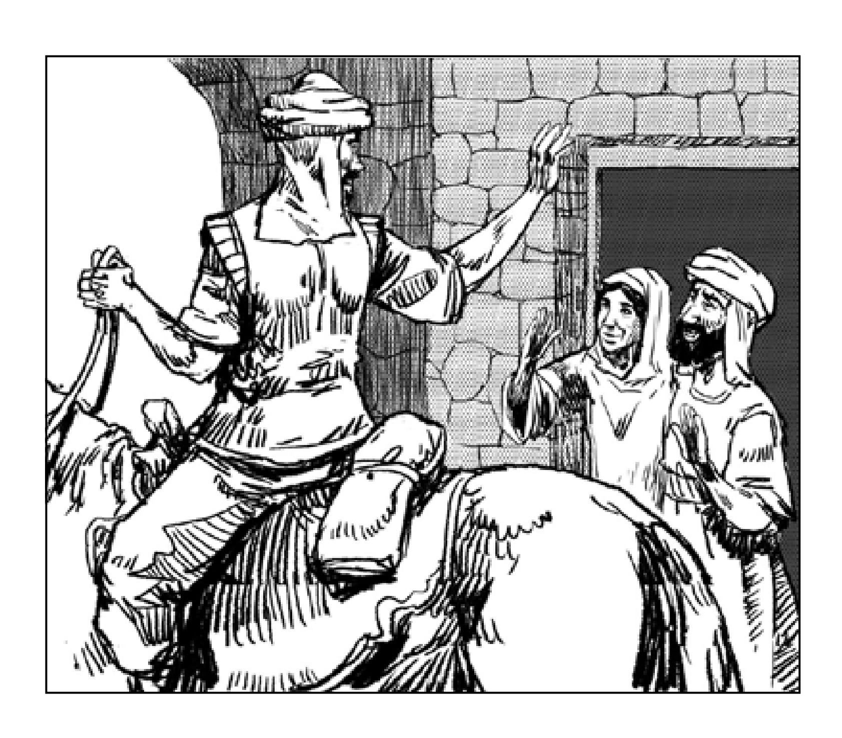
ودَعا بغُلامٍ لهُ أسودَ فقالَ لهُ: أعِدَّ الفرَسَ وجهِّزْ آلةَ السَّفرِ.

فقلتُ في نَفسي: إنّهُ يُريدُ الخُروجَ إلى ضَيعَةٍ لهُ أو ناحِيةٍ منَ النَّواحِي.

وأقامُوا يَومَهم في كَدٍّ وتَعبٍ، فلمّا كانَ يومُ خُروجِ القافلَةِ جاءَني في السَّحَرِ فقالَ: قُمْ فإنَّ القافِلةَ تَخرُجُ السّاعةَ.

فقلتُ في نَفسي: كَيفَ أصنَعُ وليسَ مَعي ما أتَزوَّدُ بهِ ولا ما أكْتَري بهِ دابّةً؟

وقُمتُ. فإذا الرّجلُ وامْرأتُهُ يحمِلانِ حَقيبةً فيها مِنْ أجمَلِ الثِّيابِ وخُفَّانِ جَديدانِ وآلةُ السّفرِ. وجاءَني بِسَيفٍ فَعلّقَهُ بِكَتِفي، وأهْدى إليَّ الفرَسَ والغُلامَ الأسودَ، وأعطاني صُرَّةً فيها خَمسةُ آلافِ



دِرهَمٍ، واعْتذَرَ إليَّ هوَ وامْرأتُهُ مِنَ التّقصيرِ في أداءِ حَقّي!

فعاهدْتُ اللهَ لَأَرُدَّنَّ لهُ الجَميلَ بِمثلِهِ، ولَأَجْزِيَنَّهُ على ما أحْسنَ إليَّ خَيرَ الجَزاءِ.

هوَ الرّجلُ نَفسُهُ

فقالَ: قدْ أمْكنَكَ اللهُ منَ الوَفاءِ لهُ ومُكافَأتِهِ. أنا واللهِ ذلكَ الرّجلُ، وأنا واللهِ مَظلومٌ مُعتَقَلٌ بوِشايَةِ

وَاشٍ كاذِبٍ، وإنّي مَأخوذٌ غداً فمَقتولٌ، فَاللهَ اللهَ فِيَّ.

فتَأمَّلْتُهُ، فَإذا هوَ بِعَينِهِ، ولكنّ الضُّرَّ أخْفاهُ عنّي. وطَفِقَ يُذَكِّرُني بِدَقائقِ ما كانَ منّي ومنهُ وتَفصيلِ أمرِه.

فَما تَمالكْتُ نَفسي أنْ وثَبتُ إلَيهِ أُعانِقُهُ وأُقَبِّلُ رأسَهُ، وقُلتُ: ما شَأنُكَ؟ وما الّذي صَيَّركَ إلى ما أرى؟



سَبَبُ اعْتِقالِهِ

قالَ: هاجَتْ في دِمشقَ فِتنةٌ كَالفِتنةِ الّتي كانتْ في أيّامِكَ، فوَشى بي أعداءٌ لي فنَسبُوها إلَيَّ، وبعَثَ أميرُ المؤمِنينَ بجُندٍ فضبَطوا البلَدَ، وأُخِذْتُ أنا فضُرِبتُ حتّى أشرفْتُ على الموتِ، وقُيِّدتُ وأُرسِلَ بي إلى أميرِ المؤمِنينَ. وقدْ أُخرِجتُ عنْ أهلي بِلا وَصِيَّةٍ ولا وَداعٍ، وقدْ تَبِعَني رجُلٌ منهُم، يَنصَرِفُ



إِلَيهِمْ بِخَبَري، وهوَ نازِلٌ عندَ فُلانٍ، وأنا لا أريدُ منكَ مِنَ المُكافَأةِ إلّا أنْ تُرسِلَ مَنْ يُحضِرُهُ لي حتّى أوصِيَهُ بِما أريدُ، فإنْ فعلْتَ هذا فقدْ جاوزْتَ حَدَّ المكافَأةِ ووَفَّيتَ أتَمَّ الوَفاءِ.

بَينَ واجِبَينِ

فشَعرْتُ أنّني في فَرحةِ مَنْ أضاعَ جَوهرةً ثُمّ وجدَها، كُنتُ كمَنْ لهُ غائبٌ قدْ طالَ انْتظارُهُ ثُمَّ رآهُ أمامَهُ. وجَعلتُ أُعِدُّ في ذِهني عشَراتٍ مِنَ الخُطَطِ لِبرِّهِ وإسْعادِهِ، ثُمّ ذَكرتُ أنّهُ سَجينٌ وأنّي مَسؤولٌ عنهُ أمامَ الخَليفةِ، فهَبطْتُ مِنْ سَماءِ الأمانيّ إلى أرضِ الواقِعِ، ونَظَرْتُ في مَوقِفي، فإذا أنا في مِحنَةٍ مِنْ مِحَنِ الضَّميرِ. لقدْ دَفَعَ الرّجلُ عنّي الموتَ، وأنا أُمسِكُ بِه لأُسْلِمَهُ غَداً إلى الموتِ! هوَ وَقانِي بنَفسِهِ حتّى حمَلَ إليَّ الحياةَ، وأنا أحْرُسُهُ بِنفسي لأسْلُبَ منهُ الحياةَ.

فما أصْنعُ؟ أَأَفِي لهُ وأرُدُّ لهُ دَينَهُ، فأخُونَ أمانةَ

الوَظيفَةِ وأتَعرَّضَ لِغضَبِ الخليفةِ، أَمْ أُؤَدّي أمانةَ الوَظيفةِ وأُرضِي الخليفةَ، وأسْتَمتِعُ بِالحياةِ الرَّضِيَّةِ والجاهِ العَريضِ، فأصْغُرَ في عينِ نَفسي وفي عُيونِ زَوجتي وأولادي؟

وذكَرتُ بذِكرِ الزّوجةِ والوَلدِ أنّي إنْ وَفيتُ لِلرّجلِ لمْ أقتلْ نَفسي وَحدَها، لكنّي رَمَّلتُ الزَّوجةَ ويَتَّمْتُ الوَلدَ!

وأحسَسْتُ بِالأفْكارِ تَتضارَبُ في رَأسي وتَلطِمُ صُدْغي، وشعَرْتُ كَأنَّ في صَدري وَقْراً وكَأنّي سَأخْتَنِقُ، فوضَعْتُ رَأسي بَينَ كَفَّيَّ وجَعلْتُ أفكّرُ: ماذا أصْنعُ؟

عليَّ حَقُّ الطّاعةِ لِلخليفَةِ وحَقُّ الأمانةِ لِلمَنصِبِ وعليَّ حَقُّ الأُبُوَّةِ لِلولدِ، ولكنْ عليَّ -في مُقابَلَةِ ذلك- حَقُّ الوفاءِ لِلرّجلِ الّذي أنْقذَ حَياتي مِنَ الموتِ، فَكانَ على يَديَّ سَلْبُهُ حَياتَهُ وتقدِيمُهُ لِلموتِ.

ولم أكُنْ بِالرّجلِ الجَبانِ ولا بِالضّعيفِ الخَوّارِ، ولقدْ وقَفتُ في المعارِكِ الحَمراءِ وفي أيّام الخُطُوبِ مَواقِفَ لا تَقِفُها أُسْدُ الغابِ، وثَبَتُّ حَيثُ لا تَثبُتُ الصُّخورُ الرّواسي، ولكنّ هذا مَوقِفٌ لَمْ يَمُرَّ بي مِثلُهُ، إنَّها مِحنَةٌ لَمْ أعْرِفْها مِنْ قَبلُ.

وتَصَوَّرتُ أنّني قدْ عُزِلْتُ وسُجِنْتُ أو قُتِلْتُ، فأصابَتْ ولَدي الذِّلَّةُ وذاقُوا مَرارَةَ الحاجَةِ. ثُمَّ تَصوَّرتُ أنّي تَركتُ الرّجلَ يُقتَلُ، فتَجرَّعْتُ عَذابَ الضّميرِ وصَغُرتُ في عُيونِ أوْلادي. كيفَ يَنظُرُونَ إليَّ إنْ أسْلَمتُ لِلقَتْلِ الرّجلَ الّذي طالَما حَدَّثتُهُم حَديثَهُ ووَصفْتُ لهمْ فَضلَهُ ونُبلَهُ؟ وما الحياةُ إنْ لَمْ يكُنْ فيها راحَةُ الضّميرِ وتَقديرُ الولَدِ واحْتِرامُ النّاسِ؟

يَفعَلُ ما هوَ أرْضى لِلّهِ

ثُمَّ رَأيْتُ وَجهَ الصّوابِ، فذكَرتُ أنّني مُسلِمٌ، وأنّ المسلمَ إذا تَردَّدَ بينَ أمرَينِ آثَرَ أرْضاهُما للهِ وأقْرَبَهُما إلى الحَقِّ. واللهُ لا يَرضى أنْ أكُونَ ظالِماً ولا

أنْ أُعِينَ على ظُلمٍ، والخليفةُ يُطاعُ في المعرُوفِ ولا طاعةَ لِمَخلوقٍ في مَعصِيَةِ الخالِقِ. وذكَرْتُ جَوابَ الحَسنِ البَصْرِيِّ لابنِ هُبَيْرَةَ والي العِراقِ لمّا قالَ لهُ: إنّ يَزيدَ بنَ عبدِ الملِكِ قدْ يَأمُرُني بشَيءٍ فيهِ مَعصِيةُ اللهِ، ولا أمْلِكُ مُخالَفَتَهُ، وأنا عامِلٌ لهُ، فماذا أعمَلُ؟ فقال لهُ: يا ابْنَ هُبَيْرَةَ، إنْ كُنتَ معَ اللهِ في مَعصِيةِ يَزيدَ حَماكَ مِنْ يَزيدَ، وإنْ كنتَ معَ يَزيدَ في مَعصِيةِ اللهِ لَمْ يَعصِمْكَ يَزيدُ مِنَ اللهِ.



رَدُّ الجَمِيلِ

فعَزمْتُ أنْ أكونَ معَ ما يُرضي اللهَ. ودعَوتُ بِالحَدّادِ ففَكَكْتُ قُيودَ الشّاميِّ، وأدْخَلتُهُ الحمّامَ، ودعَوتُ بِمُعاوني فقُلتُ لهُ: خُذْ فَرَسي، وثَلاثةَ بِغالٍ مِنْ عِندي، وخُذْ عَشَرةَ آلافِ دِرهَم، وجَهِّزْ هذا الرّجلَ واخْرُجْ معَهُ حتّى تُوصِلَهُ إلى بلَدِهِ، وإنْ نَقَصَتْ شَعرةٌ مِنْ رأسِهِ سألْتُكَ عنها.

فقالَ الرَّجلُ: لا واللهِ لا يَكونُ هذا أبداً، أنْجُو أنا وتُسألُ أنتَ؟! لا، بَلْ ألْقَى مَصيرِي.

فقُلتُ لِمُعاوِني: جَهِّزْهُ وَضَعْهُ في مَكانِ كذا، فَإنْ نَجوتُ أنا غَداً جِئتُ إلَيهِ، وإنْ أصابَني شَيءٌ كُنتُ قدْ وَقَيتَهُ بِنَفسي كما وَقاني بنَفسِهِ.

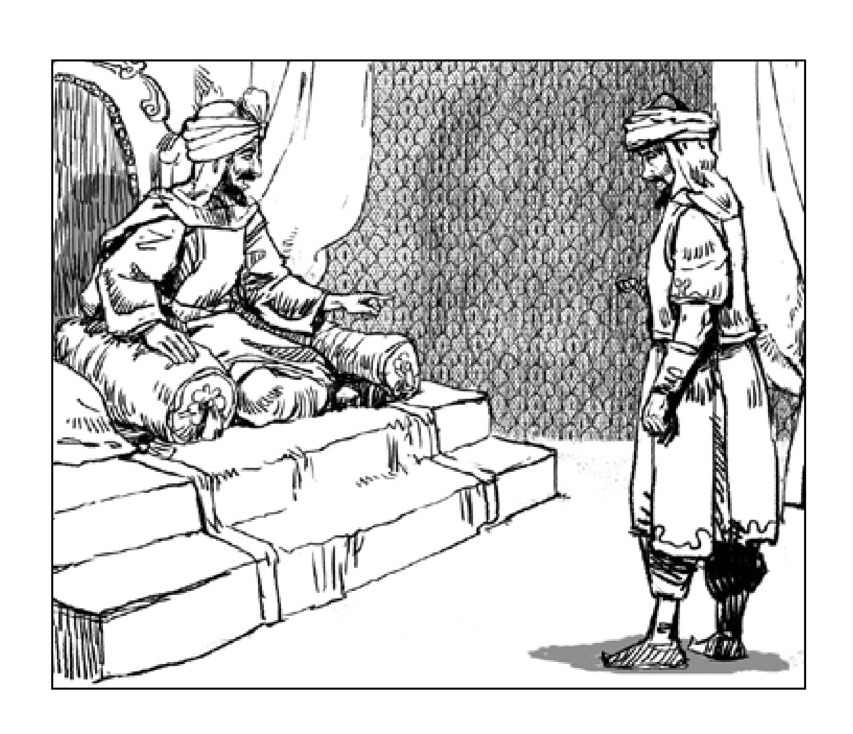
عِندَ أميرِ المُؤمنينَ

لمّا قَرَّرْتُ ذلكَ اسْتَرحْتُ، فَنِمتُ قَليلاً، ثُمَّ قُمتُ أنْظُرُ إلى الأوْلادِ بِعُيُونٍ دَامِعَةٍ واسْتَودَعْتُهُمُ اللهَ.

حتّى إذا كانَ السَّحَرُ تَوَضَّأتُ وقُمتُ أُصَلِّي وأسْتَغفِرُ وأسْألُ اللهَ، حتّى إذا بدَا بَياضُ النّهارِ أقْبَلَ رَسولُ أميرِ المؤمِنينَ يَدعُوني إليهِ، فمَشَيتُ معهُ، فرَأيتُهُ قاعِداً على كُرسِيٍّ في صَحنِ الدّارِ يَنتَظِرُني، فلَمّا رآني وَحدي قالَ لي: أينَ الرَّجُلُ؟

فسَكَتُّ ولمْ أُجاوِبْ.

فَصاحَ بي: أينَ الرَّجُلُ وَيحَكَ؟!



فسَكتُّ، فقالَ الخليفةُ: واللهِ لَئِنْ قُلتَ لي أنهُ هرَبَ لأضْرِبَنَّ عُنُقَكَ.

قُلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، ما هرَبَ، ولكن اسْمعْ مِنّي.

قالَ مُغضَباً: قُلْ.

قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، مِنكَ تَعلَّمْنا الوَفاءَ وعنكَ أخَذْنا سُنَنَ العَدلِ، ولهذا الرّجلِ قِصّةٌ فاسمعها مني.

وقَصَصتُ عليهِ القِصّةَ ثم قُلتُ: الأمْرُ بَينَ يَدَي أميرِ المؤمنينَ، فإنْ رأى أنّهُ مَظلومٌ فهوَ أَوْلى مَنْ رَفعَ ظُلامَةً، وإنْ كانَ مُجرِماً فهذا عُنُقي بدَلاً مِنْ عُنُقِهِ. أنْقذَني مِنَ القَتلِ حتّى عِشتُ وبلَغتُ مِنْ رِضا أميرِ المؤمنينَ أنْ ولّاني شُرطَتَهُ، وهأنَذا أُوَفّيهِ دَيني وأنقِذُهُ كما أَنْقَذَني، وهأنَذا قدْ تَحَنَّطْتُ[1] وهذا كَفَني، وقد اسْتَودَعْتُ اللهَ ولَدي وأهْلي وجِئتُ أسْتَقبِلُ الموتَ.

---

(١) أيْ اسْتَعدَدْتُ لِلموتِ، وأصْلُها منْ وَضْعِ الحَنُوطِ، وهوَ الطِّيبُ الذي يُطَيَّبُ بهِ الميِّتُ.

الخَليفةُ يَتَأَثَّرُ وتَدمَعُ عَيناهُ

فلمّا سَمِعَ أميرُ المؤمنينَ الحِكايةَ نَدِيَتْ عَيناهُ بِالدَّمع. وكانَ رَقيقَ القَلبِ حَليماً، وقال: وَيحَكَ، فَهَلّا جِئتَني بهِ وحدَّثْتَني خَبَرَهُ قَبلَ أنْ تُخرِجَهُ، لأكونَ أنا الّذي يُكافِئُهُ على إحْسانِهِ؟

قُلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّهُ ها هُنا، وقدْ حَلَفَ ألّا يَبرَحَ حتّى يَعرِفَ سَلامَتي.

قالَ المأمونُ: هذهِ أعْظَمُ مِنَ الأُولى.

الرّجلُ يَحضُرُ

ودخَلَ الحاجِبُ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، بَالبابِ رجلٌ غَريبٌ يُقولُ أنّهُ قادِمٌ بِأمرٍ عَظيمٍ عاجِلٍ لا يُدْلي بهِ إلّا لأميرِ المؤمنينَ.

قالَ: أَدْخِلْهُ.

فدَخلَ، فإذا هوَ الرّجُلُ ذاتُهُ.

قالَ: ما شَأنُكَ؟

قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، جِئتُ لِتَحكُمَ فِيَّ، وقدْ أسْرَعتُ لِئَلّا يُؤخَذَ أحَدٌ بِذَنبي.

قالَ المأمونُ: واللهِ ما أدْري أيُّكُما أكْرَمُ مِنْ صاحِبِهِ؟ وَيحَكَ، ما خَبَرُكَ؟

فقَصَّ علَيهِ قِصّةَ الفِتنَةِ وخبرَ اعْتِقالِهِ وضَرْبِهِ. وأحَسَّ المأمونُ الصِّدقَ في كَلامِهِ، فقَرَّبَهُ وأكْرَمَهُ



وغَدّاهُ معَهُ، وعرَضَ علَيهِ الوِلايَةَ فَاسْتَعفَى منها، فأمَرَ لهُ بمِئَةِ ألْفِ دِرهَم وعشَرَةِ آلافِ دِينارٍ، وكَتبَ إلى عاملِهِ بِدمشقَ بِالوَصِيَّةِ بهِ، وقالَ لِصاحبِ الشُّرطَةِ: خُذْ بِيَدِهِ فأكرِمْهُ كَما تُرِيدُ.

إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسنَ عَمَلاً

لمّا خَرجَ مُديرُ الشُّرطَةِ منَ القَصرِ وَجَدَ مُعاوِنَهُ بِالبابِ، فلَمّا رآهُ المُعاوِنُ أقْبَلَ علَيهِ بِلَهفَةٍ وخَجَلٍ



يقولُ: لقدْ طارَ يا سَيِّدي، لقدْ كانَ بَينَ يَدَيَّ...

ثم الْتَفَتَ فرَأى الرّجلَ يَخرُجُ مِنْ قَصرِ الخليفَةِ ضاحِكاً مَسرُوراً، ففَتحَ فمَهُ كَالأَبْلَهِ ووقَفَ مَشدُوهاً، فقالَ لهُ مُديرُ الشُّرطَةِ: مَنْ الّذي طارَ؟

قالَ: الذي طارَ عَقلي، إنَّ عَقلي هوَ الّذي طارَ، فلمْ أفْهمْ مِنْ قِصّةِ هذا الرّجل شَيئاً. أراهُ البارِحَةَ في القُيودِ الثِّقالِ وهوَ على حافَةِ القَبرِ، وأراهُ اليَومَ خارجاً مِنَ القَصرِ ومعَهُ البِدَرُ(١) والأمْوالُ.

فضَحِكَ وقالَ لهُ: هذهِ عاقِبَةُ الصِّدقِ وثَمَرَةُ الإحْسانِ. إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً.

-تَمَّتْ-

---

(١) البِدَرُ جمع بَدْرَة، وهي كيسٌ فيه مالٌ كثير.

التّاجِرُ والقائِدُ

القائدُ المُماطلُ

كانَ في بغدادَ تاجرٌ، وكانَ لهُ على أحَدِ القُوّادِ الكبارِ مَبلغٌ عظيمٌ مِنَ المال، وكلَّما طالَبَه به اسْتَمْهَلَ وماطلَ، فاسْتعانَ عليه بِمن يَعرفُهُ مِنْ أصحابِهِ، فلم يَسمعْ من أحدٍ، فشكاهُ إلى الوزيرِ عبدِ اللهِ بنِ سُلَيمانَ.

وأمَرَهُ الوَزيرُ بأن يُعطيَ التاجرَ ما لَهُ عندَهُ، فلم يَستجبْ ولم يُعطِهِ شيئاً. وساءتْ حالُ التاجرِ وأشرفَ على الإفلاسِ وضاقتْ بهِ سبُلُ العَيشِ، حتّى فكّرَ برفعِ شَكواهُ إلى المُعتَضِدِ.

الخليفةُ الحازِمُ

كانَ المعتضدُ هوَ الخليفةَ السادسَ عشَرَ من خُلفاءِ بَني العبّاسِ، وكانَ قويّاً شُجاعاً مَهيباً، أعادَ لِلخلافةِ هَيبَتها بعدَ أنْ صارتْ لُعبةً بِأيدي قُوّادِ الأتراكِ، هم يُنَصِّبونَ الخليفةَ وهم يَعزِلونَهُ. وكانَ



شديدَ البطشِ بالغَ العُقوبةِ، فَهابَهُ القريبُ والبعيدُ، وعَمَّ في زمانِه الأمنُ وهدأتِ الثَّوْراتُ.

فكَّرَ التاجرُ في رفعِ شكواهُ إلى الخليفةِ المعتَضِدِ نفسِهِ، فقالَ لهُ واحدٌ من أصحابِهِ: هل تحبُّ أنْ أُوصِلَكَ إلى مالِكَ من غيرِ أنْ تَصِلَ إلى الخليفةِ؟

قالَ: نعم.

قالَ: قُمْ معي الآنَ.

قالَ: إلى أينَ؟

قالَ: وما عليكَ؟ سِرْ معي.

وسارَ بهِ إلى سوقٍ ضَيّقٍ في بغدادَ يُسمّى سوقَ الثُّلاثاءِ، فوقفَ على دُكّانٍ على بابِ مسجدٍ صغيرٍ، وفيهِ شيخٌ كبيرُ السّنِّ رَثُّ الثّيابِ قاعدٌ يَخِيطُ ويَقرأُ القرآنَ. فسلَّمَ عليهِ وقالَ لهُ: إنَّ لهذا التّاجرِ مالاً على



القائدِ الفُلانيِّ، وهوَ يُماطِلُهُ ويَأبى أنْ يَدفَعَ لهُ حقَّهُ.

قالَ التّاجرُ: فقُلتُ في نفسي: إنَّ هذا الصّديقَ يَسخرُ مِنّي ويريدُ أنْ يَضحكَ عليّ، وإلّا فماذا يَعملُ هذا الخيّاطُ المِسكينُ بعدَما عجَزَ الوزيرُ وكبارُ رجالِ الدَّولةِ عن تَحصيلِ المالِ؟

سألَ الخيّاطُ: ومن أينَ لكَ عليهِ هذا المالُ؟

فأجبتُهُ بِازْدِراءٍ وتَرفُّعٍ جواباً مُوجَزاً مُختصَراً، وهَمَمْتُ بأنْ أترُكَهُ وأمشيَ، فقالَ الخيّاطُ: قوموا بِنا إليه.

الخياطُ في بيتِ القائدِ

ومَشى معَنا، فتأخّرتُ عنه وقلتُ لصديقي: إنّكَ تسخرُ منّي ومن هذا الشيخِ وتُعرِّضُهُ لِلأذى. إنَّ هذا الشّيخَ إذا قَرعَ بابَ القائدِ خرجَ غِلمانُهُ فصفَعوهُ وصفَعونا معَهُ وأغلَقوا البابَ في وُجوهِنا! وكَيفَ يَسمعُ القائدُ مِنهُ وهوَ لمْ يَلْتفِتْ إلى كلامِ الوزيرِ ولا

إلى كلامِ فُلانٍ وفُلانٍ من أصحابِهِ؟

فضَحِكَ الرَّجلُ وقالَ: لا عَليكَ، اِمشِ واسْكُتْ.

وجِئنا إلى بابِ القائدِ وأنا أمشي وراءَهُما، أُقَدِّرُ ما سَيكونُ، وإذا بِغِلمانِ القائدِ وأعْوانِهِ -لمّا رأوا الشّيخَ- يُعَظِّمُونَهُ ويَخضَعونَ لهُ ويَهُمّونَ بِتَقبيلِ يَدَيهِ فَيمنَعُهم.

قالوا: بِماذا تأمُرُ؟ إنَّ القائدَ غائبٌ، فإنْ كانَ



أمراً نَعلَمُهُ نحنُ نفَّذناهُ فَوراً، وإلّا فادْخُلْ واسْترِحْ ونحنُ نَدعُوهُ لكَ السّاعةَ.

القائدُ يَمتَثِلُ أمرَ الخيّاطِ

قالَ: اُدعُوهُ.

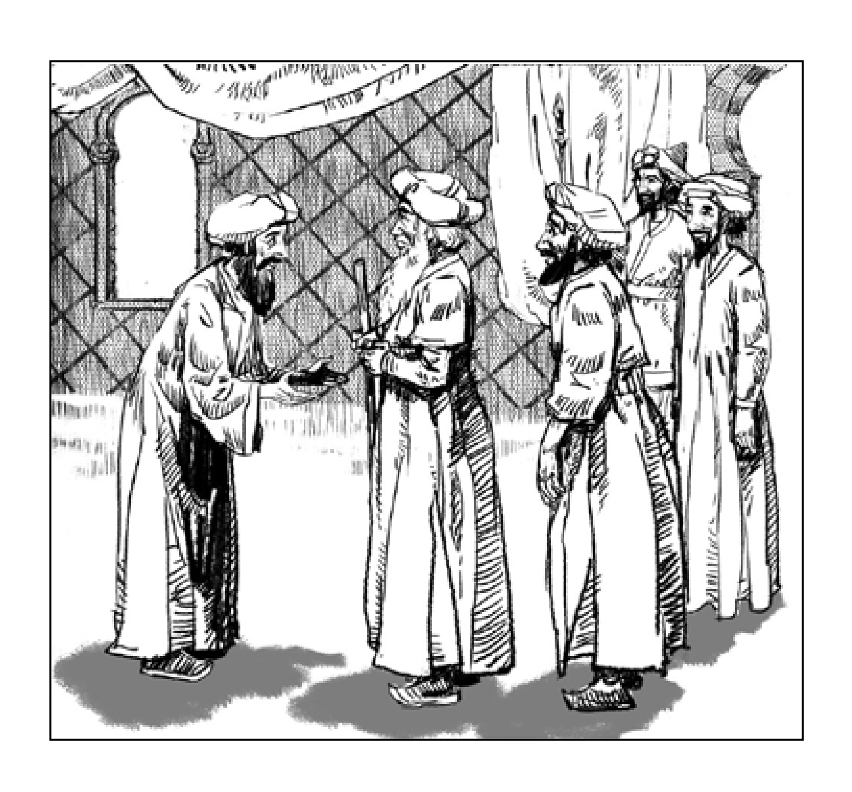
ودَخلَ، فَما كانَ أَسْرعَ مِنْ أنْ جاءَ القائدُ، فلمّا رآني تَجَهَّمَ وبدَتْ بَوادِرُ الغَضبِ علَيهِ، ودخَلَ مُغضَباً، فلمّا أبصرَ الخيّاطَ اصْفرَّ وجهُهُ وزالَ غضبُهُ، وخضعَ لهُ وأعْظَمهُ غايةَ الإعْظامِ وقالَ: واللهِ لا أَقْعُدُ ولا أَخْلعُ ثيابي حتّى تأمرَ بِأمرِك.

قالَ: أَعْطِ هذا حَقَّهُ.

قالَ: نعم، ولكنْ ما عِندي واللهِ الآنَ إلّا خمسةُ آلافٍ، وأَكْتُبُ لهُ بِالباقي إلى شهرٍ، واجْعلْ قَصري هذا رَهناً بِالمبْلغِ.

قالَ الخيّاطُ: فما تَقولُ؟

قُلتُ: نعم.



فدفعَ إليَّ خَمسةَ آلافٍ وكَتبَ سنداً بالباقي، وأشْهَدَ عَليهِ الخيّاطَ وصاحبي الذي جاءَ مَعي، وقال: إذا جاءَ الأجَلُ ولم يصِلْ إلَيكَ مالُكَ فأنتَ وكِيلٌ بِبَيعِ الرَّهنِ واسْتِيفاءِ الحقِّ مِنهُ.

الخيّاطُ يَأبى الأُجرةَ على مَعروفِهِ

ثم خَرجْنا حتّى بلغْنا دُكّانَ الخيّاطِ، فطَرَحتُ

المالَ بينَ يَدَيهِ وقُلتُ: يا شيخُ، إنَّ اللهَ ردَّ هذا المالَ بِسَبَبِكَ، فخُذْ مِنهُ ما شِئتَ: رُبعَهُ أو ثُلُثَهُ أو نِصفَهُ، بِطِيبِ قلبٍ مِنّي.

قالَ: ما أسْرعَ ما كافَأتَني على الجميلِ بالقَبيحِ! خُذْ مالَكَ وانْصرِفْ باركَ اللهُ لكَ فيهِ.

قلتُ: بَقِيَتْ لي حاجةٌ.

قالَ: قُلْ.

قُلتُ: تُخبرُني عنْ سَببِ طاعةِ هذا الرَّجلِ لكَ بَعدَ تَهاوُنِهِ بِأكثرِ أهلِ المَمْلَكةِ.

قالَ: يا هذا، قدْ بلغْتَ مُرادَكَ، فلا تَقطعْني عنْ شُغلي الّذي أعِيشُ بهِ.

فألْحَحْتُ عَليهِ فخبَّرَني قِصَّتَه.

قصّةُ الخيّاطِ

قالَ: أنا رجلٌ كما تَراني، أؤُمُّ في هذا المسجدِ

وأَخِيطُ مُنذُ أربعينَ سنةً، لَمْ أعرِفْ في عُمُري بابَ أحدٍ منَ الحُكّامِ ولا أسْألُ مَنْ وُلِّيَ ومَنْ عُزِلَ. وأعيشُ سَعيداً راضياً. والسّعادةُ يا وَلَدي لَيسَتْ بالمالِ ولا بالمَنْصِبِ، ولكنْ بالرِّضا والقَناعةِ. إلى أنْ كانتْ لَيلةٌ مِنْ الليالي، انصرَفتُ فيها مِنْ صلاةِ العِشاءِ إلى بَيتي، فسَمعْتُ صِياحَ امْرأةٍ تَستَغيثُ وتُنادي: يا أهلَ المروءَةِ، أنْقِذُوني، قدْ خَطَفَني هذا الرَّجلُ.

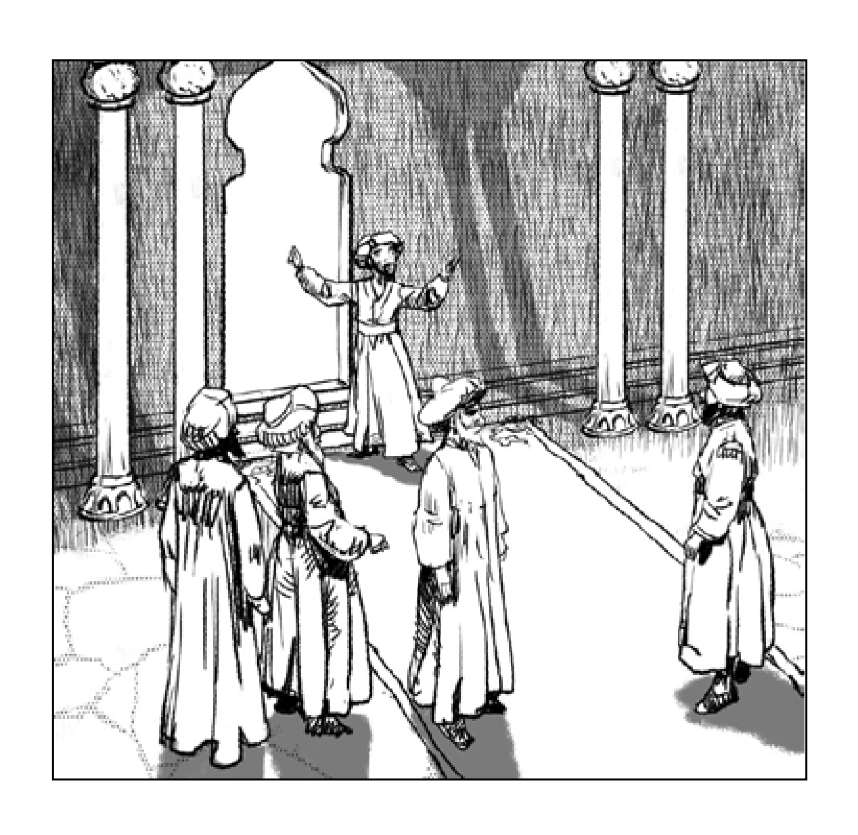


فأسْرعْتُ، فَإذا امْرأةٌ مَستورةٌ منْ جِيرانِنا كانتْ راجِعةً إلى دارِها، فرآها أحدُ جُنودِ الأتراكِ، وكانَ سَكرانَ، فقبَضَ عَلَيها وجَرَّها إلى بَيتِه، وهيَ تنادي: أينَ الرّجالُ؟ أينَ حُماةُ الأعْراضِ؟ ألمْ يَبقَ في البلَدِ مُسلمونَ؟ ألَمْ يبقَ فيها أشرافٌ؟ أما يُدافِعُ أحدٌ عنْ عِرضِ امْرأةٍ شَريفة؟

فَلَحِقتُهُ أُحاوِلُ أنْ أنْتَزِعَها مِنهُ، بِالنُّصحِ تارةً والزَّجرِ تارةً، فَضربَني بِعصاً كانتْ معَهُ ومَضى بِها.

الشّيخُ يَستَنجِدُ بِالمصَلّينَ

فرجَعتُ إلى المسجدِ وأدْركتُ أواخِرَ المصلّينَ فقلتُ لهم: وَيحَكُم، امْرأةٌ مُسلِمةٌ يَخطَفُها أحدُ جُنودِ الأتراكِ مِنَ الطّريقِ ونحنُ نرى؟ أفَنَسْكُتُ على هذا؟ أفَنَذهَبُ إلى بُيوتِنا فنَنامُ آمِنينَ وهذهِ المرأةُ تُكرَهُ على الفَحشاءِ؟ لقد اسْتجارَت امْرأةٌ مرّةً بالمعتصم وهيَ في بلادِ الرُّوم، فتركَ طعامَهُ وشَرابَهُ وعافَ لَذّاتِهِ ومَشى بِالجَيشِ حتّى أنْقذَها، ونحنُ نَرى المسلمةَ تَستَجيرُ



بنا في بَغدادَ فَلا نُجيرُها؟ أينَ الرُّجولةُ؟ أينَ الشَّهامةُ؟ بَلْ أينَ الدّينُ؟ إنَّ اللهَ سَيَخْسِفُ بِنا الأرضَ إنْ رَأينا المُنكَراتِ ولمْ نَمُدَّ إلى إنْكارِها يداً ولَمْ نُحرِّكْ لِساناً.

المُصلُّونَ يُدافِعُونَ عَنِ المَرأةِ

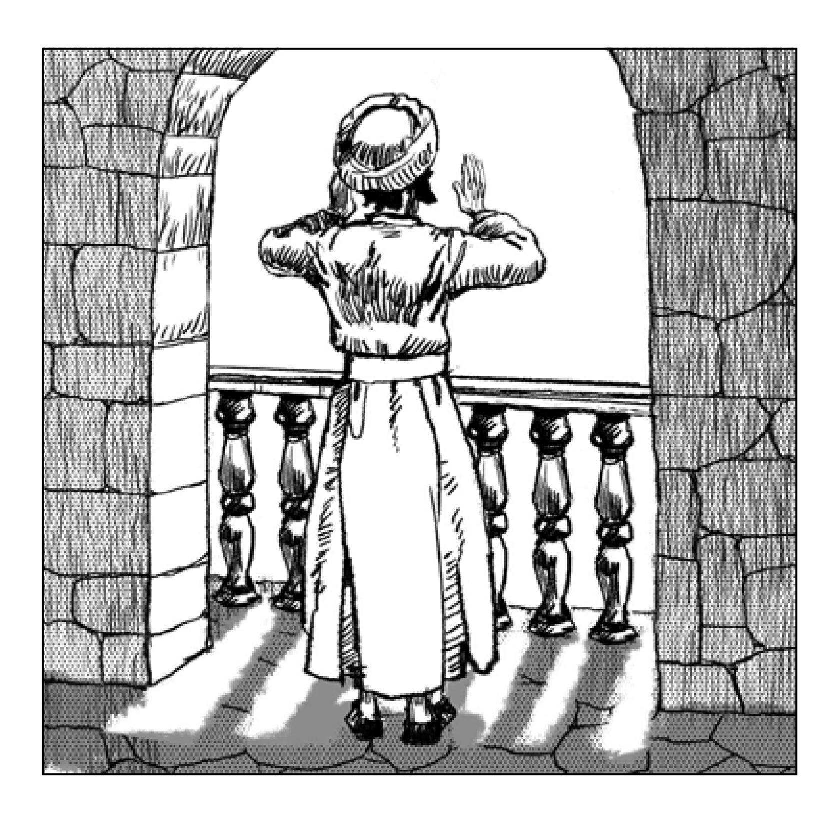
غَلتْ دِماءُ القَومِ، على شَيخُوخَتِهِمْ وعجْزِهِم. وليسَ شيءٌ يُحرِّكُ العربيَّ المُسلمَ ويُثيرُهُ مِثلُ الدِّفاعِ

عنِ العِرضِ والانْتِصارِ لِلمرْأةِ الشَّريفةِ الّتي تُكرَهُ على الشَّرِّ.

ومَشَيْنا إلى بابِ الرّجلِ نُنكِرُ عَليهِ ونَصرُخُ بهِ، فخَرجَ عَلينا خَدمُهُ وأعوانُهُ فضرَبونا ضَرباً شَديداً وآذَوْنَا، ورأَوا أنّني أنا الذي يدْفعُ القَومَ فخَصُّوني بِأشَدِّ الضَّربِ، حتّى وقَعتُ وقدْ غَطَّتْني دِمائي، وحُمِلتُ إلى داري فغَسلْتُ جُروحي وربَطتُها.



وحاولْتُ المنامَ فلمْ أَسْتطِعْ، وكُنتُ أَتَصَوَّرُ هذهِ المرْأَةَ المِسكينةَ فيَدفَعُني تَصوُّرها إلى العملِ ويُضرِمُ النّارَ في أعْصابي، فخرَجتُ مرّةً ثانيةً وجَمعتُ جَمْعاً منَ الجيران، وذهبْنا إليهِ فأصابَنا مِنَ الضَّربِ والأذى أشَدُّ منَ الأُولى، فلَمّا يَئِستُ قلتُ في نَفسي: لَو صعِدتُ المنارةَ فأذَّنْتُ لَظَنَّ الجنديُّ أنَّهُ طلَعَ الفَجرُ فَخافَ وأَطْلقَها.

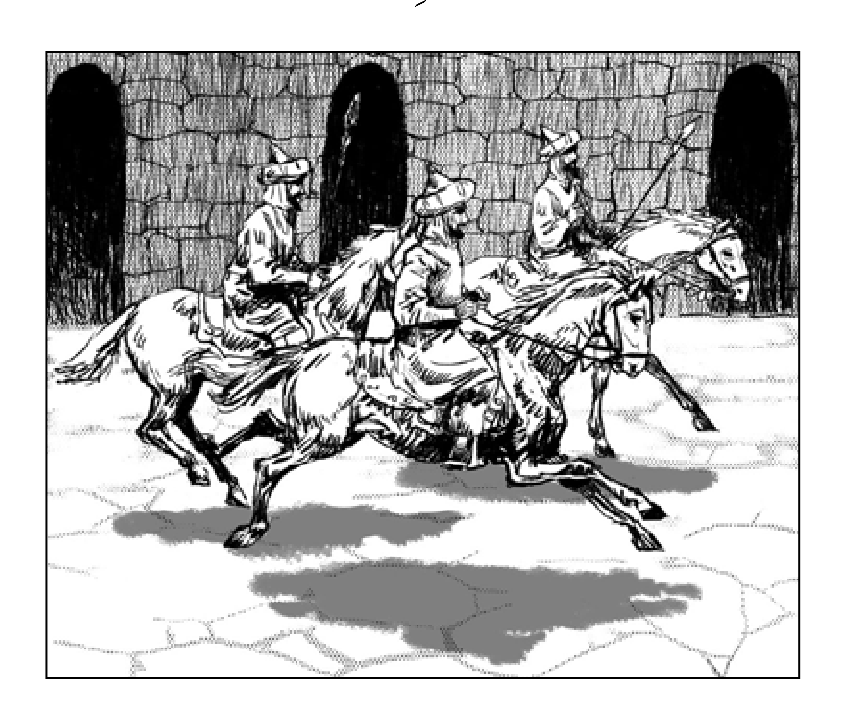


قُدومُ الشُّرْطةِ

صَعِدتُ فأذَّنتُ، فمَا شَعرتُ إلّا رَجّةً هزَّت الطّريقَ ومَلأتْهُ المشاعِلُ يحمِلُها الشُّرْطةُ وهم يَقولون: مَنْ هذا الذي يُؤذِّنُ في غَيرِ وَقتِ الأذانِ؟

قلتُ في نَفسي: جاءَ الفَرَجُ إنْ شاءَ اللهُ. ونادَيتُ من فَوقِ المنارةِ: أنا.

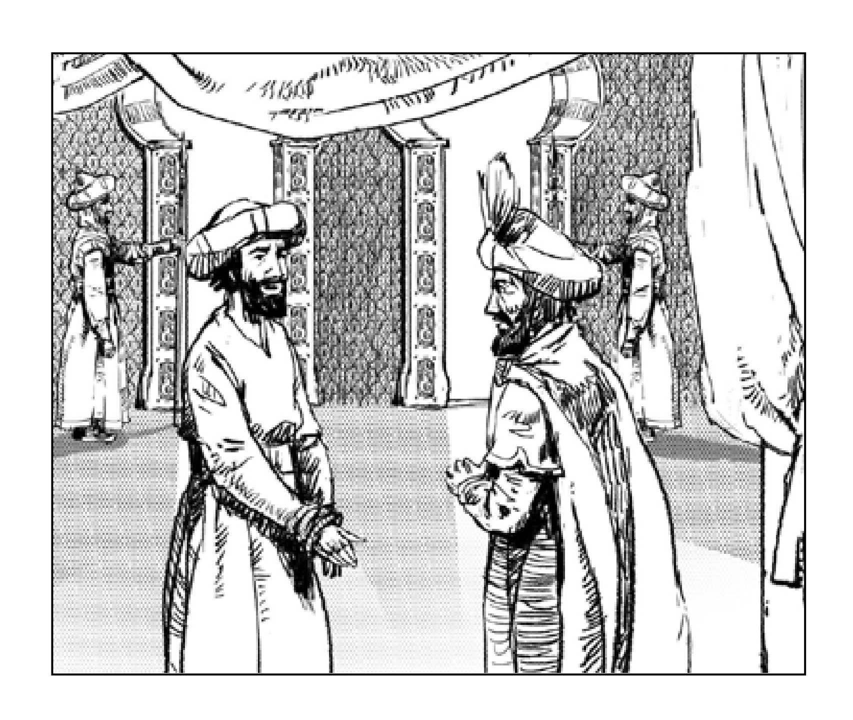
فقالوا: وتقولُ أنا؟ انزِلْ يا كذا وكذا.



فنزَلْتُ، فأخَذوني وقالوا: أجِبْ أميرَ المؤمِنينَ، ولَعلَّهُ يَضرِبُ عُنُقَكَ ويُريحُ منكَ النّاسَ.

فمَضَيتُ معَهم، فأخذُوني إلى قَصرِ الخِلافةِ، وما زالوا يَجتازونَ بي بَهواً بعدَ بهوٍ حتّى دخلتُ على المعتَضِدِ، فلمّا رأيْتُهُ وذكَرتُ بَطشَهُ وشِدَّتَهُ ارتَعَدْتُ، فترَكني حتّى أسْكُنَ، ثُمَّ قالَ: ما حملَكَ على أنْ تُغَرِّرَ بِالمسلمينَ بِأذانِكَ في غَيرِ وقتِ الأذانِ، فيُمسِكَ





الصّائمُ ويُصلّيَ المصلّي، ويَخرُجَ ذو الحاجةِ وينْقطِعَ العَسَسُ والحُرّاسُ عنِ الطّوافِ؟

قلتُ: يُؤَمِّنُني أميرُ المؤمِنينَ لأَصْدُقَهُ؟

قالَ: أنتَ آمِنٌ.

فقصَصْتُ عليهِ القصّةَ كلَّها وأرَيتُهُ آثارَ الضَّربِ، فالْتفَتَ إلى مَولاهُ بَدرٍ (وزيرِ البَلاطِ) فقالَ لهُ: عليَّ بِالمرأةِ والجُنديِّ الآنَ.

التَّحقيقُ والعِقابُ

وأَمَرَ بِوَضعي في طرَفِ المجْلِسِ، فأَحْضرَ بدرٌ المرأةَ والجُنديَّ، فسَألَها، فَصَدَقتْهُ وحدَّثتْهُ بِمثلِ ما حدَّثتُهُ بِهِ، فقالَ لِبدْرٍ: اِمضِ بها السّاعةَ إلى زَوجِها، واحمِلْ إليهِ ألفَ دِرهَمٍ وأوْصِهِ بها خَيراً.

ثم قالَ لِلجُنديِّ: كَمْ جِرايتُك (مَعاشُكَ)؟



قال: كذا (وذكَرَ مَبلغاً كبيراً).

قالَ: أفَما كانَ في هذه النِّعمةِ العَظيمةِ ما يَمنعُكَ عن ارْتِكاب المَعاصي؟ ألا يَكْفيكُمْ أنَّ اللهَ أعْلى مَنازلَكُم وأجْزلَ أرْزاقَكُم؟ أتَجعلُونَ شُكْرَكُم لِلهِ على هذهِ النِّعَمِ العُدوانَ على نِساءِ النّاسِ الذينَ تأخُذونَ هذهِ الجِرايَةَ مِنْ أمْوالِهم؟ أتَظُنّونَ أنَّ لِصاحِبِ المنصِبِ التَّصَرُّفَ في أمْوالِ النّاسِ وأعْراضِهم، وما صاحِبُ المَنْصِبِ إلّا أجِيرٌ لَهم وخادمٌ لِعامَّتِهم وقائمٌ بِمَصالِحهم؟

ثم أمَرَ بِكيسٍ فوُضِعَ فيهِ مُقيَّداً، وجاؤوا بِمَداقِّ الحَصَى فأمَرَ بِضربِهِ بِها، وهوَ يَصرُخُ، حتّى انْقطعَ صوتُهُ وماتَ، فأمرَ بِهِ أنْ يُدفَنَ.

ثم قالَ لي: يا شَيخُ، مَهما رَأيْتَ من مُنكَرٍ -ولَو من بَدرٍ هذا أو مِنَ الوزيرِ أو منَ القائدِ- فالعَلامةُ بَيني وبَينكَ أنْ تُؤَذِّنَ في مِثْلِ هذا الوقْتِ، وأنا أسْمعُكَ فأسْتَدعيكَ، ومَنْ آذاكَ أو آذى غَيرَك فجَزاؤهُ مثلُ ما



نالَ هذا الجُنديَّ.

وإنّي من ذلكَ الوقتِ أمنَعُ المُنكَرَ وأردُّ الحُقوقَ، وكُلُّهمْ يُطيعُني خوفاً منَ المُعتَضِدِ، وما احتَجْتُ أنْ أُؤَذِّنَ إلى الآن.

قالَ التّاجرُ:

بهذا تقُومُ الممالِكُ وتَعلُو الأُمَمُ. إنَّ اللهَ لا يُبارِكُ

أُمَّةً لا يُقمَعُ فيها الظّالمُ ولا يُؤمَرُ فيها بالمعرُوفِ ولا يُنهَى فيها عن المنكَرِ، ولَقدْ وفَّقكَ اللهُ لأنَّكَ لمْ تَطلُبْ على ذلكَ نَفعاً ولا أخذْتَ بهِ مالاً ولا ابْتَغَيت بهِ دُنيا، وإنَّما عمِلتَهُ لِلهِ وحدَهُ، مُخلِصاً لهُ راجِياً ثَوابَهُ.

إنَّ مَنْ يَعملُ لِلهِ يَنصُرُهُ الله، ومَن يَبْتغي بِعملِهِ رِضا النّاسِ وقَصْدَ الدُّنيا يَكِلُهُ اللهُ إلى النّاسِ ويَجعلُ ثَوابَهُ في الدُّنيا ولا يَكونُ لهُ في الآخِرةِ من نَصيبٍ.

ولمّا حَلَّ الأَجَلُ دَفعَ لهُ القائدُ ما بَقِيَ مِنْ حقِّه كاملاً غيرَ مَنقُوصٍ.

وكذلِكَ يَذِلُّ عُظماءُ الأرضِ أمامَ مَن يَبغي العِزّةَ بِاللهِ وحدَهُ.

-تَمَّتْ-

التاجرُ الخُرَاسانيّ

بغداد

كانَتْ بغدادُ أعظَمَ مُدُنِ الأرضِ وكانت عاصمةَ الدنيا، وكان يُحْمَلُ إليها كلُّ طَريفٍ من نِتاجِ العبقريّاتِ ومن ثَمَراتِ الأرضِ، وكانت تَنْصَبُّ فيها القَرائحُ والخَيراتُ والتُّحَفُ كما تَنْصَبُّ مِياهُ الأنْهُرِ كلِّها في البَحْرِ المُحيط، وكان سُكّانُها أكثَرَ من مليونين.

التاجرُ البَغداديُّ والتاجرُ الخُراسانيّ

وكانَ في بغدادَ تاجِرٌ من تُجَّارِ الكَرْخِ[1] يُعامِلُ الخُراسانيّين، فكانَ يَفِدُ عليه كُلَّ سنةٍ تاجرٌ كبيرٌ مِن أهلِ خُراسانَ بتجارةٍ عظيمةٍ يَبيعُها له. وكانَ يُعاملُه بصِدْقٍ وأمانَةٍ، فيربَحُ مِن سَمْسَرَتِهِ ألوفاً مِن الدّنانيرِ يَعيشُ بها إلى المَوْسِمِ القادِمِ.

---

(١) بغدادُ قسمان: الكَرْخُ، وهو على الضفّة الغربيّة من نهر دِجْلَة، والرُّصافةُ على الضفّة الشرقيّة.

إفلاسُ التّاجرِ البَغداديّ

ثُمّ انقطعَ هذا الخُراسانِيُّ سَنَةً ولم يَحضُرْ مَعَ الحُجّاجِ، فأَثّرَ ذلك في حالِ التاجرِ البغداديّ.

وجاءت السّنَةُ التي بعدَها فلَمْ يَحضُرْ، وامتَدَّ انقِطاعُهُ سِنينَ، فأفلسَ التاجرُ البَغداديُّ وأغلَقَ دُكّانَهُ وتوارَى عن الناس، وبَقِيَ هو وأهلُه بلا طعامٍ حتّى ضاقَ عليه الأمرُ.

التاجرُ البغداديُّ يجدُ كَنزاً في النَّهر

فخرجَ هائماً على وَجهِهِ حتّى وصلَ إلى نَهرِ دِجْلَةَ. وكانَ يوماً حارّاً، ولم يكُنْ هناك أحدٌ، فنزَعَ ثِيابَهُ ونزَلَ إلى النّهرِ، وقد وَسْوَسَ إليه الشّيطانُ أنْ يَقتلَ نفسَه.

ثمّ تذكّرَ أنّ حياتَهُ ليست مِلْكَه، ولكنّها مِلْكٌ لله الذي جادَ عليه بها، وأنّ مَنْ يَقتُلُ نفسَه لا يزالُ يَتَجَرَّعُ آلامَ المِيتَةِ التي ماتَها إلى يومِ القيامةِ، ثمّ يُعاقَبُ في



الآخِرَةِ بنارِ جَهَنَّم.

وتذكّرَ أنّه لم يَجمَعْ مالَهُ من حرامٍ، وأنّ الإنسانَ إذا اتّقَى اللهَ جعلَ له مَخْرَجاً ورزقَه مِن حيثُ لا يَحتسِبُ. فمَن ضاقَ به الأمرُ وأحَبَّ أنْ يُفَرِّجَ اللهُ عنه وأنْ يَبعَثَ إليه رِزْقاً لم يُفكِّرْ فيه فعليه بتقوَى الله.

فاستغفرَ اللهَ مِنْ فِكرَةِ الانتحارِ. وأرادَ أن يَخرُجَ من الماءِ فعَلِقَتْ رِجْلُهُ بقِطعةِ رملٍ، انكشفَ مِن

تحتِها سَيْرٌ مِن جِلْدٍ مدفونٌ في الأرض. فما زالَ يَحْفِرُ مِنْ حَوْلِهِ ويَسْحَبُهُ حتّى أخرَجَه، فإذا هُو هِمْيانٌ (زُنّارٌ فيه مِحْفَظةُ المال)، فأخفاهُ تحت ثِيابِه، وجاءَ به إلى الدّارِ ففتَحَهُ، وإذا فيه ألفُ دينارٍ من ذهب!

البحثُ عن صاحبِ الكَنز

فقال: اللهُمَّ إنّي مُحتاجٌ إلى هذا المال. سآخُذُه، ولكَ عَلَيَّ أنّي متى أصلحتُ حالي بحثتُ عن صاحِبِه



ورَدَدْتُ إليه مالَه.

وأخَذَ المالَ، واحتفظَ بالهِمْيانِ، ثُمّ وفَّى دُيونَه وعادَ ففتَحَ دُكّانَه.

ومَرَّتْ أيامٌ طويلةٌ وهو يبحثُ، فلم يَعرِفْ صاحبَ الهِمْيان.

رجلٌ يبكي على صَحْنِ زيت

مَضَى زمانٌ، وكانت ليلةٌ باردةٌ مُمْطِرةٌ من ليالي الشتاء، وكانَ مَصْدوعاً مريضاً لا يستطيعُ النّومَ، فلمّا أغفَى قليلاً سَمِعَ مِنَ الطّريقِ صُراخاً وبكاء، فنظرَ، فإذا برجلٍ يَنْشِجُ ويبكي ويَلطِمُ وجهَهُ ويَصيحُ.

قال: ما لَكَ؟

قال: صحنٌ فيهِ حُلْبَةٌ مَغْلِيّةٌ وزيتٌ، سَقَطَ وانكسَرَ.

قال: أكُلُّ هذه الضجَّةِ من أجلِ حُلبةٍ وزيتٍ ما تُساوي فَلْسَينِ؟



فازدادَ الرجلُ بكاءً وقال: يا هذا، والله ما أبكي لِفَلْسَينِ، ولكنّ زوجتي في الطَّلْقِ وليسَ مَعَنا شيء، وإنْ لم آخُذْه إليها تموتُ.

ثم حَلفَ أيماناً مغلَّظَةً وقال: والله لقد حَجَجْتُ سنةَ كذا، فضاعَ منّي على شَطِّ دِجْلَةَ هِمْيانٌ فيه أَلْفُ دينارٍ وجَواهرُ، فما بالَيْتُ واحتَسَبْتُه عند الله، وأنا

الليلةَ أبكي من أجل فَلْسَينِ! فلا يَغْتَرَّ أحَدٌ بالغِنَى ولا يَهزَأْ أحدٌ بالفَقْرِ، فإنّه ربّما افتَقَرَ الغنيُّ وأثرَى الفقيرُ.

قال: صِفْ لي هِميانَكَ.

فجعلَ يلطِمُ ويقولُ: يا رجلُ، اترُكْني وحالي. أتَسْخَرُ منّي وأنتَ ترى ما أنا فيه من الفَقْرِ والآلامِ والقِيامِ في المَطَرِ؟

ومَشَى يَحمِلُ هَمَّهُ ومُصيبَتَهُ، وقد يَئِسَ مِنَ



المَخلوقينَ واتّجَهَ بقلبهِ إلى اللهِ وحدَه يَبتغي منه الفرجَ، وينادي بصوتٍ خافِتٍ مِن قلبٍ مجروحٍ: يا الله!

ومَن نادَى "يا الله" مُتضَرِّعاً مُضطَرّاً بقلبٍ مَجروحٍ ونِيَّةٍ صحيحةٍ فإنّ الله لا يُخَيِّبُه.

التاجرُ يُمسِكُ الرّجلَ ويسأله

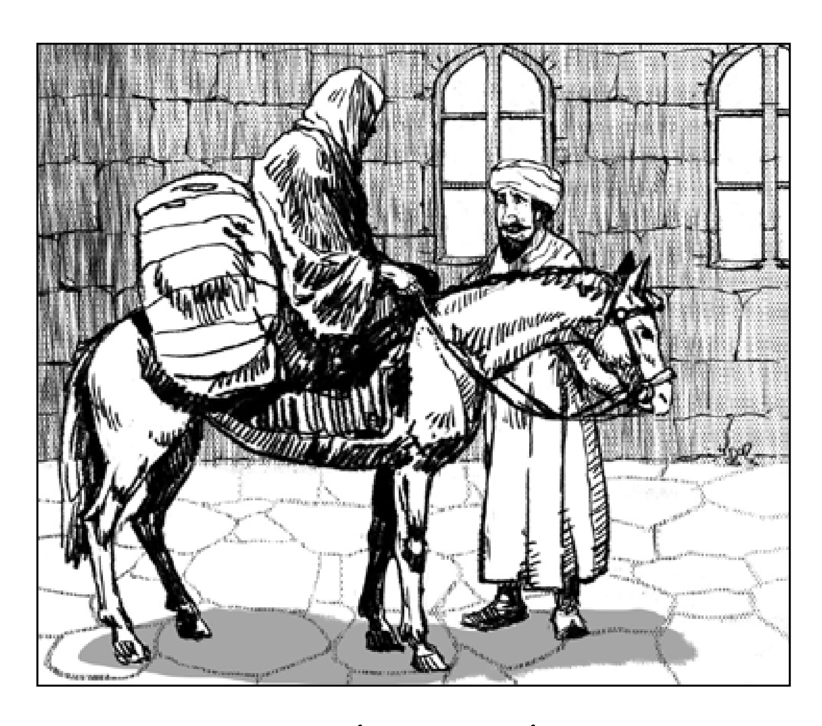
وأحَسَّ التّاجرُ كأنّ قُوّةً خَفِيّةً تَدفَعُهُ لِيَلْحَقَ الرَّجُلَ، فنزَلَ وركَضَ وراءَه وهَتَفَ: قِفْ.

فحَسِبَهُ سيُعطيهِ شيئاً، فوقفَ له، فلمّا وصلَ إليه أمسكَ به وقال: صِفْ لي هِمْيانَك.

فوصَفَه، فعرفَ أنّه هو ذاتُه. فسألَه: أين امرأتُك؟

قال: في الخانِ الفُلانيّ.

فبعَثَ مَن جاء بها (وكانَتْ في الطَّلْق على وَشْكِ الوِلادة) وأدخلَها إلى أهله وأحضرَ لها القَابِلَةَ وعُنِيَ بها، وأدخلَ الرّجُلَ الحَمّامَ وألبَسَه، فلمّا خرجَ نظر



إليه، فإذا هو عَميلُهُ التّاجِرُ الخُراساني.

ولم يَعرِفْهُ الخراساني. وخَشِيَ -إنْ هو فاجَأَهُ بالهِمْيانِ وعَرَّفَه بنفسه- أنْ يَقْتُلَه الفرحُ، فانتظرَ، وجعلَ يُقدّم إليه كُلَّ يومٍ عشرةَ دنانيرَ من ذهب، والرجلُ مُتعَجِّبٌ مِن هذا الكرمِ بعد ذلك الجفاء، فلمّا انقضت أيامٌ قالَ له: قُصَّ عليّ قِصّتَك.

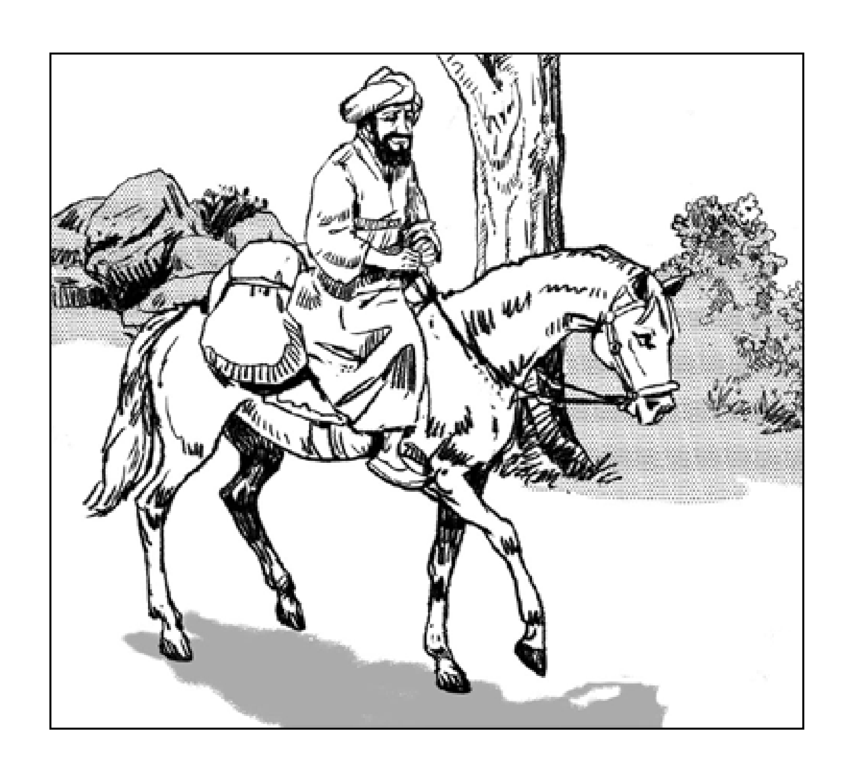
الرجل يَقُصُّ قِصَّتَه

قال: كنتُ في نِعمَةٍ واسعةٍ ومالٍ كثير، وكنتُ أَحُجُّ كلَّ سَنةٍ فأجيءُ بتجارةٍ عظيمةٍ أعودُ منها بالأرباحِ الطائِلةِ، فجاءني في إحدى السّنواتِ أميرُ بلدي وقال: إنّكَ مَعروفٌ بالأمانَةِ، وإنّي أعْهَدُ إليكَ بأمرٍ لا يقومُ به غَيرُك. عندي قِطعةُ ياقوتٍ لا مثيلَ لها، وليس هنا من يَشتريها أو يعرفُ قَدْرَها، ولا



تصلحُ إلّا لِلخليفة، فخُذْها معك فبِعْها لي في بغداد.

فجعلتُها في هِميان صِفَتُه كذا وكذا (ووصفَ الهِميان ذاتَه) وجعلتُ معَها ألفَ دينار، وربطتُه في وسَطي. فلمّا جِئتُ بَغدادَ نزلتُ أسبحُ في الجزيرةِ عندَ سوقِ يَحيَى، وتركتُ الهِميانَ مع ثيابي بحيثُ أراهما. فلمّا خرجتُ من الماء -وقد غرَبَت الشّمسُ- لَبِسْتُ ثيابي، ونَسيت الهِميان فلم أذكره إلّا بعدَ



حين، فغَدَوْتُ لطَلَبه، فكأنّ الأرضَ ابتلعَتْه! فهَوَّنْتُ على نفسي المُصيبةَ وقلت: أنا رجلٌ غَنِيٌّ، ولعلّ قيمةَ الحَجَرِ خمسةُ آلافِ دينارٍ أؤدّيها من مالي.

وذهبتُ إلى الحَجِّ، فلمّا قضيتُ حَجّي وعُدتُ إلى بلدي خَبَّرْتُ الأميرَ وعرضتُ عليه خمسةَ آلافِ دينار، فطَمِعَ وقال إن الحَجَرَ يُساوي أربعينَ ألفَ دينار!

فبِعْتُ أمْلاكي وتجارتي وأثاثَ بيتي، ولم أتخلّصْ منه، ثم قبضَ عليّ وأنزلَ بي صُنوفَ المَكَارِهِ ووَضعَني في الحبسِ سبعَ سنينَ، كلُّ يومٍ منها بِسَنَةٍ، حتى تمنّيتُ الموتَ. ثم تشفّعَ بي أهلُ بلدي فأطلقني، فجعلتُ أرحلُ مع القوافِلِ أنا وزوجتي، أسألُ الناسَ بعدَ الغِنى واليَسار.

فلمّا كانَتْ تلكَ الليلةُ ضرَبَها الطَّلْقُ في خانٍ خَرِبٍ وما معي إلّا فَلْسانِ وما معَنا أحدٌ، فقالت: يا رجلُ، السّاعةَ تخرجُ روحي، فاخرُجْ وهيِّئْ لي شيئاً أتقوّى به.



فخرجتُ، فوجدتُ بَقّالاً رَقَّ لي، ففتَحَ دُكّانه وأعطاني ما كانَ في الصّحْنِ الذي انكسَرَ.

البِشارَةُ بالفَرَج

قالَ التاجِرُ البغداديّ: إنّ الله فَرَّجَ عنك، وقد انتهَت مِحْنَتُك، فتماسَكْ ولا تَضطَرِبْ، فإنّي مُخْبِرُكَ بأمرٍ عجيب. ولكن انظُرْ إليّ أوّلاً، أمَا عرفتَني؟

قال: لا.

قال: أنا عميلُك الذي كانَ يبيعُ لك تجارَتَك.

فنظرَ إليه، ووثبَ يعانِقُهُ ويشكُرُ له فَضْلَه.

قال: لا تشكُرْني، بل أنا الذي يشكرُك، فإنّ الله أحياني بسببك، وسيُحييكَ بسببي. إنَّ ما أعطيتُك مِنَ الدّنانيرِ ليسَ من مالي، إنّما هو مالُك، وإنّ لك عندي ألفَ دينار.



قال: ومِن أين جاءَ هذا الدَّيْنُ؟

قال: إني وجدتُ هِمْيانَك بِعَيْنه.

ثم جاءه بكيسٍ فيه ألفُ دينار.

الجَوهرةُ والدَّنانيرُ

فانْبَسَطَتْ أسَاريرُ الرّجُلِ وبَرَقَتْ عَيناه وقال: يا سيدي، الهِميانُ نفسُه عندك؟



قال: وما تصنعُ به وهذا مالُك؟

قال: خبِّرْني، هل هُوَ عِندَك؟

قال: نَعَمْ.

فشَهِقَ شَهْقَةً حَسِبَ أنّ رُوحَهُ خرجَتْ معها، وخَرَّ ساجِداً لله، ثم رفع رأسَه وقال: هاتِهِ.

فجاءَه به، فقال: سكّين.



قال: فأعطيتُه السكّينَ، فخَرَقَ جِلْدَ الهِمْيانِ واسْتَخرجَ منهُ حَجَرَ ياقوتٍ أحمَرَ كادَ شُعاعُه يأخُذُ بصري.

ثم تركَ الدّنانيرَ ومشى وهو يدعو لي، فقلت: خُذْ دنانيرَك.

فحلَفَ لا يأخُذُ منها شيئاً إلّا ثَمَنَ بَعيرٍ ونفَقَاتِ السّفَر، فلمّا أَلَحَّ عليه التّاجرُ البغداديُّ أخذَ ثلاثَمِئَةِ



دينارٍ وسامَحَهُ بالباقي.

خاتمة

فلمّا كانَت السّنةُ المُقبِلةُ جاءَ على عادته، وقد أعادَ الحجرَ إلى الأميرِ، واستعانَ عليه بوُجوهِ البَلَدِ فاستحيَا ورَدَّ عليه مالَه كُلَّه، وعَوَّضَه عَمّا حَمَّله من عَذاب.

وكانت الخاتِمةُ هي الخاتمةَ المعروفةَ في الحكاياتِ القديمة: عاشَ الجميعُ بالمَسَرّاتِ حتّى أتاهم هاذِمُ اللذّاتِ ومُفَرِّقُ الجَماعات، الموتُ الذي هو مَصيرُ كلِّ إنسان.

وكانَ ذلك ببرَكَةِ الصِّدْقِ في المُعاملةِ والإخلاصِ في الدّعاء وصحّةِ التوَجُّهِ إلى اللهِ في المُلِمَّات.

-تَمَّتْ-

قِصَّةُ الأَخَوَيْنْ

أحمدُ وخَلَف

كانَ في بلدةِ نَصِيبينَ (في شَماليّ سوريا) تاجرٌ غَنِيٌّ جدّاً اسمُهُ محمّدُ بنُ عِمرانَ، وكانَ له ولدانِ، ماتَتْ أمُّهما وهما صَغيران فرَبّاهُما أبوهما، الأكبرُ اسمُه أحمدُ والأصغرُ اسمُه خَلَف.

أمّا أحمدُ فكانَ شابّاً رقيقَ الجِسْمِ دقيقَ العظمِ، وكانَ مُطيعاً لأبيه بارّاً به، يعاونُه في التّجارةِ ويُساعِدُهُ في العمل، وكان قد نالَ حَظّاً مِن العلمِ وعَمِلَ به، فكان مُتعَبِّداً صالِحاً مُستقيماً.

وأمّا خَلَفٌ فكانَ ضخماً قويّاً يستطيعُ أن يَجُرَّ بكتفِه عَجَلة، ولكنّه لا يستطيعُ أنْ يفهمَ مسألةً، فنشأ جاهِلاً خامِلاً. وكانَ قَبيحَ السّيرةِ سَيّئَ الخُلُقِ، يَعصي رَبَّهُ ويُتعِبُ أباه، ويُصاحِبُ الأشرارَ ويترُكُ الأخيارَ، حاولَ أبوه إصلاحَهُ وبَذَلَ في ذلك جُهدَه فلم يَصلُحْ.

أحمدُ وأبوه

فلمّا كَبِرَ الأبُ ودَنَتْ وَفاتُهُ قال لأحمد: إنّكَ قد أرحتَني وأرضيتَني بمِقدارِ ما أتعبَني أخوك وأسخطَني، وإنّي أحِبُّ أنْ أكتبَ مالي كلَّه لكَ وحدَك، فاسْتَدْعِ شُهوداً لأُشْهِدَهم على ذلك.

قال أحمدُ: لا يا أبي، أنا لا أريدُ أنْ آخُذَ ما ليسَ لي، فاقْسِمْ بينَنا المالَ على السَّواء.

قال: إني أخشَى أنْ يُنفِقَ مالَهُ ويعودَ عليكَ كما كان يَصنعُ وهو صَغيرٌ. ألا تذكُرُ كيفَ كنتُ آتيكُمَا بالأَكْلَةِ الطيِّبَةِ فيأكُلُها كلَّها وحدَه ولا يَدَعُ لك شيئاً، فلمّا صِرتُ أقسِمُ ذلك بينكما كانَ يُسرعُ فيأكُلُ حِصَّتَه وتخبِّئُ أنت حِصَّتَك، فيَرجِعُ عليكَ فيأخُذُها منك! وكنتُ أحميكَ منه، فمَنْ يحميكَ بعدَ موتي؟ فدَعْني أكتُب المالَ كلَّه لك.

قال أحمدُ: إنّكَ تعلمُ يا أبي أنّه مَن حَرَمَ وارِثاً

إرْثَهُ حَرَمَهُ اللهُ الجنةَ، وأنا أَثِقُ بالله وأعتمدُ عليه، فاذا مضيتَ أنتَ -بعد عُمرٍ طويل- فإنّ اللهَ بَاقٍ، وإذا تعدّى عَلَيّ وظَلَمَني كان اللهُ هو الذي يَحميني منه ويَنتقمُ لي.

ثم ماتَ الوالدُ فاقتسمَ الولدانِ المالَ، فكانَ لكلِّ واحِدٍ منهما أكثرُ من ثلاثِمِئةِ ألفِ دِرْهَم.



أحمدُ يشتغلُ بالتجارةِ وخَلَفٌ يبذّرُ فيُفلسُ

أمّا أحمدُ فاستعمَلَ حِصَّتَه في التّجارةِ، يُنَمِّي أموالَه ويُؤَدّي زَكاتَها ويتصَدَّقُ منها على الأقرباءِ والجيرانِ، ولكنّه لا يُنفِقُ درهماً واحِداً في الحرامِ ولا يسلُكُ طريقَ التَّبْذيرِ، لأنّ المُبَذّرينَ كانوا إخْوانَ الشّياطين. ثمّ تزَوَّجَ زوجَةً صالِحةً ورُزِقَ منها بوَلدٍ جميل.

وأمّا خَلَفٌ فراحَ يُبذّرُ مالَهُ ويُتلِفُه في اللذّاتِ المُحَرَّمَةِ، يَصْرِفُه على القَيْناتِ والمُغنّياتِ وعلى إخوانِ السّوءِ في مَجالِسِ الخَمرِ. وكانَ أحمدُ يَنصَحُه فلا يَسمعُ منه، ثمّ صارَ يَشتُمُه كلّما ألقَى إليه نصيحةً، ولقَدْ هَمَّ مَرّةً بضربِهِ أمامَ النّاسِ، فتركَه.

فلم تَمْضِ أربعُ سنواتٍ حتّى ذهبَ المالُ، ثلاثُمِئةِ ألفٍ ذابَتْ فلم يَبْقَ لها أثرٌ، وعادَ فقيراً لا يملكُ دِرْهَماً ولا ديناراً، وليسَ لهُ عِلْمٌ وليست في يدِهِ صِناعَةٌ.

الفِسقُ يُذهِب المالَ

ولا تَعجَبوا من إنفاقِ ذلك المالِ الكثيرِ في تلك السّنَواتِ القِصَارِ، فإنّ مَنْ تَعَوَّدَ التَّبْذيرَ والإنفاقَ في الحَرامِ ولم يكُنْ له عقلٌ ولا دينٌ يُقَوِّمُهُ يَرجعُ فقيراً ولو كان معه عَشرةُ ملايين. إنّ الحَرامَ بَلُّوعَةٌ، والبَلّوعةُ تَشربُ -على ضيقها- البِرْكَةَ الكَبيرةَ، والحرامُ يُفرِغُ الخِزانَةَ المُمتلِئَةَ.

وليسَ أسهلَ من الصَّرْفِ. إنّ مِنَ السُّفهاءِ مَنْ يُنفِقُ في ليلةٍ واحدةٍ على القِمار والخمرِ والغَرام وأبوابِ الحَرامِ ما تعيشُ به عشرونَ أسرةً شهراً كاملاً.

لا مالَ ولا أصحابَ

وتلفَّتَ فلم يَجِدْ حوَله أحداً. النّساءُ اللواتي كُنَّ يُظْهِرْنَ له الحُبَّ ويُبْدينَ له الغَرامَ انْصَرَفْنَ عنه لمّا صارَ فقيراً، ورُحْنَ يُفَتِّشْنَ عن مُغفَّلٍ آخَرَ يَسْرِقْنَ مالَه، عن حمارٍ آخَرَ يَرْكَبْنَه. والأصحابُ الذين كانوا يَحُفّونَ به ويَخدِمونَه ويَدَّعونَ صداقَتَه ومَوَدَّتَه ويسهرونَ على

تلبيةِ مطالِبِه وتحقيقِ أمانيه، هؤلاء الأصحابُ ما بَقِيَ منهم واحدٌ يقولُ له: "السلامُ عليكم"، وإذا رأَوْهُ في طريقٍ أداروا وُجوهَهم عنه، وإذا طلَبَ من أحدِهم أنْ يُقْرِضَه عَشرةَ دراهِمَ أبَى عليه ذلك!

لقد كانوا يَحومونَ حولَه لِيَمْتَصُّوا مالَه، فلمّا نَضَبَ المالُ وانقطعَ الحليبُ ذهبوا يُفَتّشون عن بقرةٍ أخرى يَحلُبونها. فصارَ شَحّاذاً لا يَقْدِرُ على شيء.

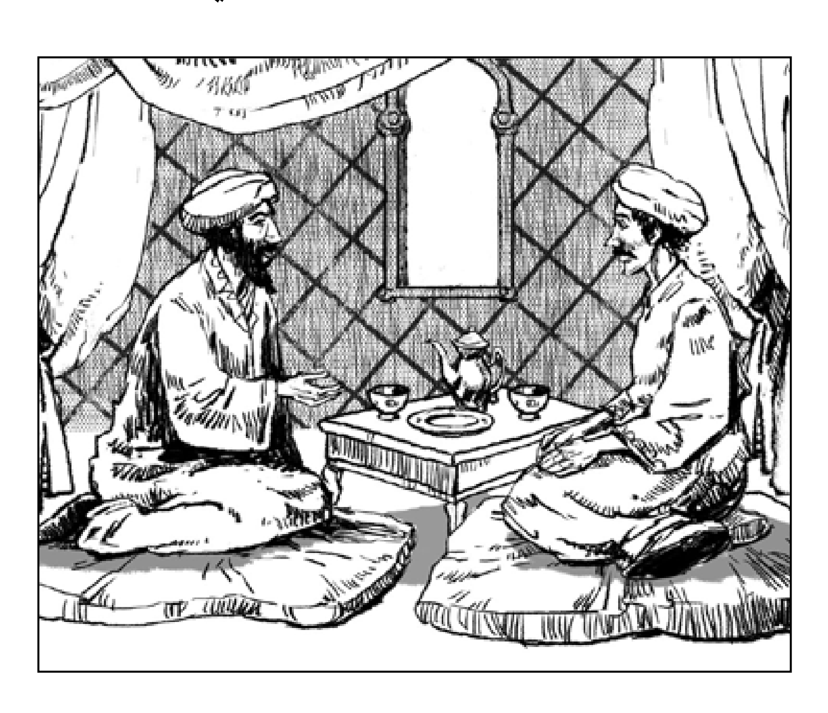
وهكذا يُعجّلُ اللهُ (أحياناً) مكافَأةَ المُحْسِنِ وعُقوبَةَ المُسيء حتّى يراها في الدُّنيا، ولَثوابُ الآخِرَةِ أكبرُ ولَعَذابُ النّارِ أشَدُّ وأبقَى.

أحمد يُحسِنُ إلى أخيه

مَرَّتْ أيّامٌ وزادَتْ أموالُ أحمد وعَظُمَتْ تجارَتُه، فعزَمَ على الخروجِ ببضاعتِهِ إلى العِراقِ. وكانَ يبعثُ إلى أخيه بما يُعينُه من المالِ ولا يُخبِرُهُ أنّ ذلك منه، فلمّا أزمَعَ السّفرَ دعاهُ فأعطاهُ مئةَ دينارٍ ليُنفِقَ منها على نَفْسِه، وقال له: أنت أخي، وأنا أُحِبُّ لكَ مِنَ

الخَيرِ مِثْلَ الذي أحِبُّه لِنَفْسي، فإذا كنتَ قد اتَّعَظْتَ بما وقعَ لك ونَوَيْتَ أن تُصلِحَ نفسَك فإنّي أعطيكَ في كل شهرٍ مثلَها.

فأظهرَ خلَفٌ التّوبةَ وأبدَى النّدمَ على ما كان منه، وأعلنَ أنّه سيكونُ مُنْذُ اليومِ على ما يُريدُه أخوه. وفَرِحَ أحمدُ وأيقنَ أنّ أخاه بدأ يدركُ ويفكّرُ، ونوَى إنْ رأى منه صلاحاً أنْ يجعلَه شريكَه في تجارتِه، وأنْ يزوّجَه أختَ زوجته، وأن يُسكِنَه معه في بيته.



ولكنّ النَّفْسَ الخبيثةَ أبَتْ أن تَخرُجَ من الدّنيا حتى تُسيءَ لِمَنْ أحسَنَ إليها.

خلفٌ يُبَيِّتُ الشرَّ لأخيه

كانَ أحمدُ ينوي لأخيهِ الخيرَ والأخُ الخبيثُ يُبَيِّتُ في نفسه نِيَّةَ شَرٍّ لأحمدَ.

وصارَ خَلَفٌ يَتَودَّدُ إلى أخيهِ ويزورُه في كلِّ يوم، ويتواضَعُ له ويقومُ على خدمتِه، حتّى إذا اطمأَنَّ إليه ووثقَ به قال له: يا أخي، إنّك مُسافِرٌ، وإنك تحتاجُ إلى مَن يخرجُ معك ويَخدِمُك، فإذا أخذتَني معكَ كانَ خيراً لكَ مِنْ أنْ تأخُذَ غريباً عنك، وكانَ خيراً لي مِن أنْ أخدِمَ الغريبَ عنّي.

فقال له: إنّهُ لا شيءَ أَحَبُّ إليّ مِن ذلك.

وكانَ لأحمدَ أجيرٌ يَثِقُ به ويَخرجُ معه في أسْفَارِه، فجاءَ خلَفٌ يُكلّمُه لِيَختبِرَه فيَنظُرَ: هل يستطيعُ أنْ يُفسِدَه على أحمدَ ويُغريَه به ليَدخُلَ معه في الشرِّ

الذي يُبَيِّتُه؟ فلمّا رأى منه النُّصْحَ لأخيهِ والإخْلاصَ له ذهَبَ إلى أخيهِ فوشَى به وكذَبَ عليه ونسَبَ إليه ذُنوباً لم تكُنْ، حتى حَمَلَه على تَرْكِه، وراحَ فاختارَ له واحداً مِن أصحابِهِ الأوَّلينَ، فجاءَه به وزَكّاهُ ووَثَّقَهُ حتّى قَبِلَ أحمدُ أنْ يأخُذَه معه.

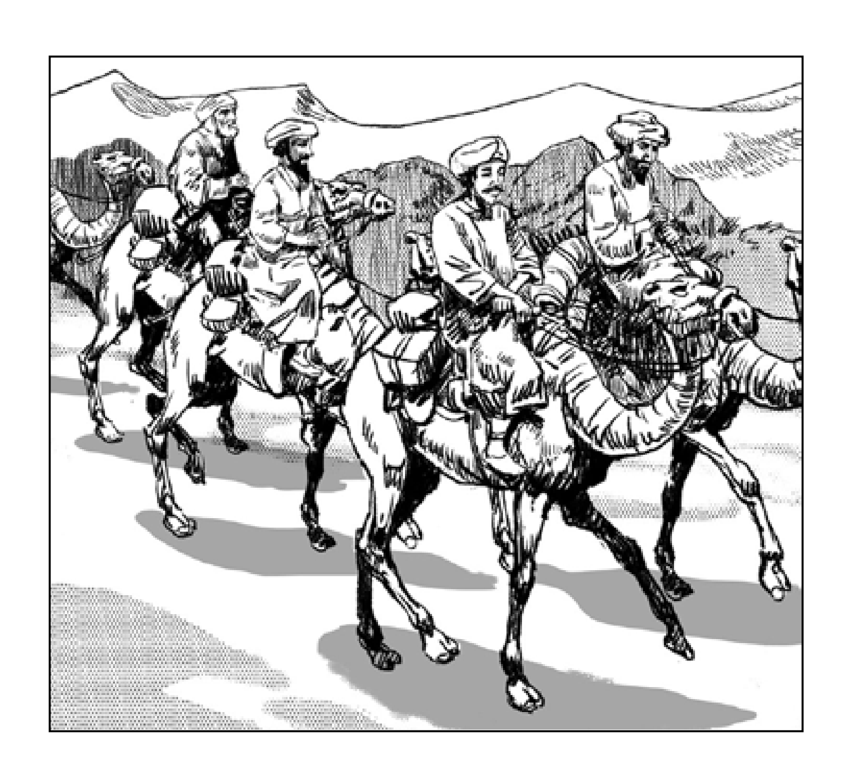
في القافلةِ

وخرَجوا في قافِلَةٍ عَظيمةٍ فيها عَشَراتٌ مِنَ التُّجّارِ ومئاتٌ مِنَ الدَّوابِّ. ورأى خلَفٌ أنّه لا يستطيعُ أنْ



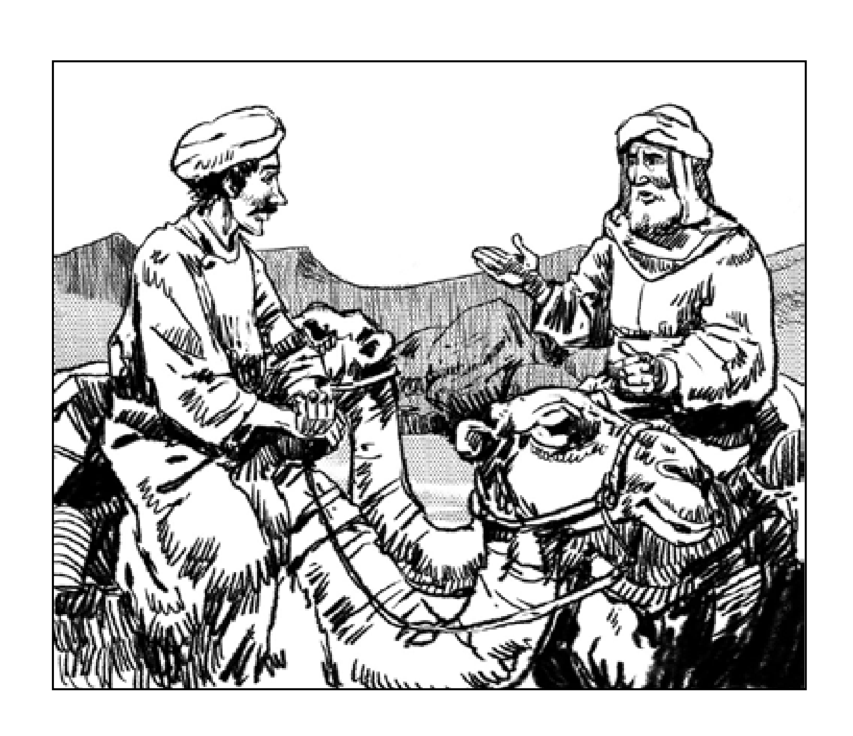
يَصنَعَ شيئاً في هذه القافلةِ الكبيرةِ، فقال لأخيه: يا أخي، إنّكَ إذا وصلْتَ بغدادَ في هذه القافلةِ لم تستَطِعْ أنْ تبيعَ بضاعَتَك بالرِّبحِ الذي تأمُلُه، لأنَّ مَعَ هؤلاءِ التُّجّارِ كثيراً مِن البضائعِ، فتهبِطُ بذلك الأسعارُ. فأنا أرى أنْ نَنْفَرِدَ بأنفُسِنا ونَسبِقَهم بليلةٍ أو ليلتين، فتبيعَ وتربَحَ قبلَ أنْ تَصِلَ بَضائعُهم إلى البلدِ.

قال: وكيفَ نَنْفَرِدُ في هذه البادِيَةِ المُوحِشَةِ؟



قال: لا تَخَفْ ما دُمْتُ أنا وصاحبي مَعَك. إنّنا نَرُدُّ عنكَ عشرةً مِن اللصوصِ إذا خَرَجوا عليك.

وما زالَ به حتّى قَبِلَ، فانفرَدَ الثلاثةُ. وكانَ أحمدُ على فَرَسٍ له، وكان أخوه وصاحبُه على بغلَيْنِ ومعَهم تِسعَةُ بِغالٍ مُحَمَّلةٍ بالبضائعِ. وهَمُّوا بالمَسيرِ، فنَصَحَهُم شيخُ القافلةِ وخَوَّفَهم، ولكنّ أحمدَ أصَرَّ على رأيه، فتركوهم.



خَلَفٌ المُجرمُ

ساروا ليلتينِ، ثمّ نَزَلوا على رابِيَةٍ مُشْرِفة على نهرِ الفُراتِ، ففَكُّوا الأحمالَ وأرَاحوا الدَّوابّ. ووضعَ أحمَدُ البضائِعَ مِن حَوْلِهِ وقعَدَ يستريحُ. ثم أخْرَجَ السُّفْرَةَ وأَعَدَّ الطّعامَ وقالَ لأخيه: تعال لنأكُلَ.

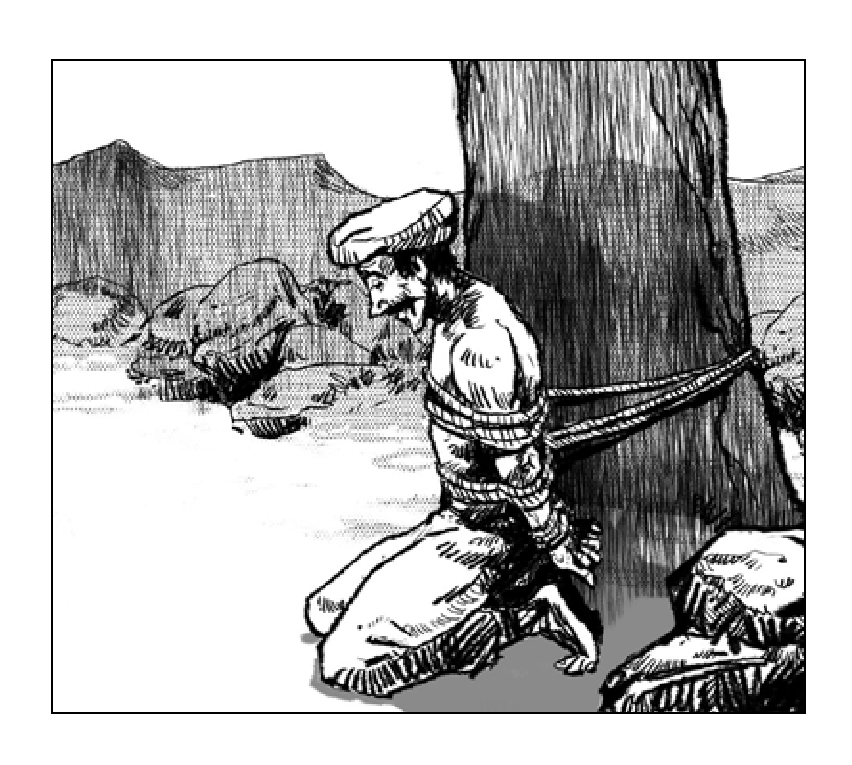
فقالَ خلَفٌ: انتَظِرْ حتّى نَسْقِيَ الدّوابَّ.

وأخَذَ الدّوابَّ فسَقاها، ثم رَجَعَ فدارَ مِن وراءِ أحمدَ، فلمّا صارَ عندَهُ رَماهُ على وَجهِه، وجاءَ رفيقُهُ فشَدَّ أكتافَهُ وقَيَّدَهُ قبلَ أنْ يُفيقَ مِنْ دَهشَتِه أو يَدريَ ما يَصنعانِ.

وعَجِبَ أحمدُ وظَنَّ أنهما يَمزحان فقال: ما هذا وَيْحَكَ؟

قال: هذا جَزاؤكَ يا لِصُّ يا سارِقُ!

قال: هل جُنِنْتَ؟ أنا لِصٌّ؟ أنا سارقٌ؟ ما الذي سَرَقتُه؟



قال: سرقتَ مالَ أبي فأخذتَهُ لِنَفسِك وجعَلْتَني أجيراً عندك، فالآنَ ترى جزاءَك.

قال أحمدُ: أنا سرقتُ مالَ أبيكَ يا خَلَفُ؟ أمَا اقتسَمْناه بيننا؟ أمَا أعطيتُك نصيبَك كاملاً؟ أمَا نصحتُك ألّا تُضَيِّعَهُ في الحرامِ؟ أمَا أردتُ لكَ الخيرَ؟

فقَهْقَهَ خَلَفٌ قَهْقَهَةً شَيطانيّة وقال: لا تُتْعِبْ رأسَكَ الجميلَ بالتفكيرِ فِيَّ. الآنَ آخُذُ المالَ.

خلف يُعرِضُ عن ذِكر الله

فقالَ له أحمدُ (وهو ما يزالُ يَأمُلُ فيهِ الخَيرَ ويُقَدِّرُ أنّها نَزوةٌ عارِضةٌ): وَيْحَكَ يا خَلَفُ! هل تظنُّ أنّ المالَ هو سببُ السعادةِ؟ ما فائدةُ المالِ إنْ لم يكُنْ مَعَهُ عَقْلٌ يَحفظُ المالَ ودِينٌ يأتي بالطُّمَأْنينَةِ والسّعادةِ؟ أما كانَ معكَ ثلاثُمِئَةِ ألفٍ؟ ماذا أفادَتْكَ لمّا وجَدْتَها ولم تَجِد العقلَ والدينَ؟هل تظنُّ أنكَ تنجو من تأنيبِ الضّميرِ؟ هل تَحسَبُ أنّكَ تَخْلُصُ مِنَ انتقامِ الله؟

فصرخ به خَلَفٌ: اِخْرَسْ!

وضَرَبَه بِسَوْطِ الدّابَّةِ على وَجْهِهِ فترَكَ عليه خَطّاً أحمرَ دامِياً، ولكنّه لم يَسكُتْ. إنّه لا يَزالُ يأمُلُ منه الخيرَ، لأنّ قَلْبَ أحمدَ ما انْطوَى إلّا على الخَيرِ فهوَ يتصوَّرُه في النّاسِ كلهم.

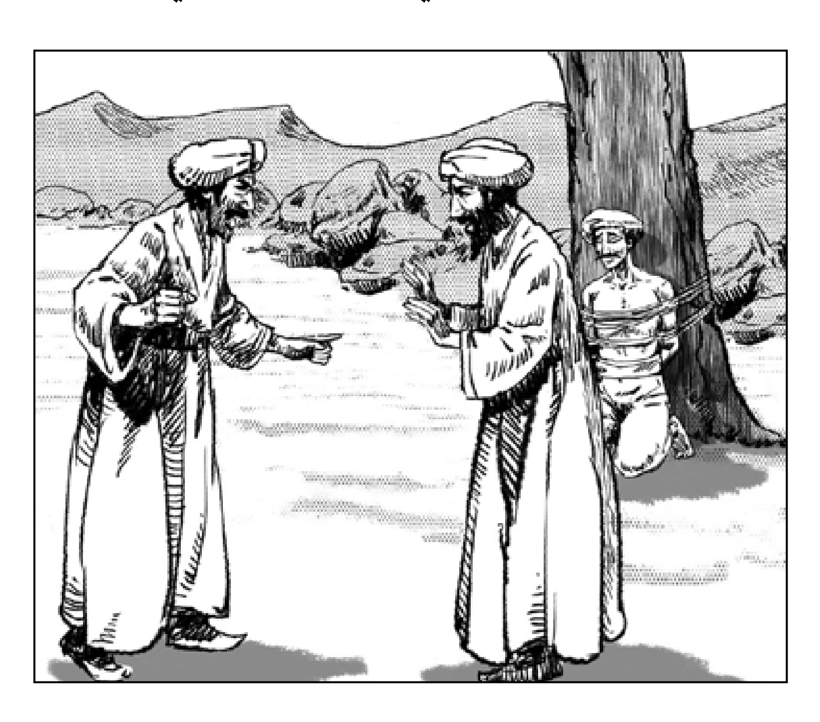
وعاد يقولُ: يا أخي، اِتَّقِ اللهَ، اُذْكُرِ الأُخُوَّةَ والدّمَ. ولوْ لَمْ يكُنْ بينَنا نَسَبٌ لكانَ لِعَيشِنا معاً هذا العُمرَ أكبرُ الحَقِّ عليك. إنّكَ تُريدُ المالَ، وأنا أُعطيكَ

ما تُريدُ. ثِقْ أنّي إذا عُدْتُ سالِماً أعطيتُكَ كلَّ ما تُريدُ.

قال خَلَفٌ: تُعطيني؟ أنا أحتاجُ أنْ تُعطِينَي؟ أنْ تتصدّقَ عَلَيّ؟ سآخُذُ المالَ كلَّه وأدَعُكَ لِديدانِ الأرضِ تأكلُ جِسْمَكَ. سآخُذُ مالَ أبي الذي سرقتَه يا كلب! سآخُذُه وحدي.

قال رفيقُه: وحدَك؟ وأنا أينَ حِصّتي؟

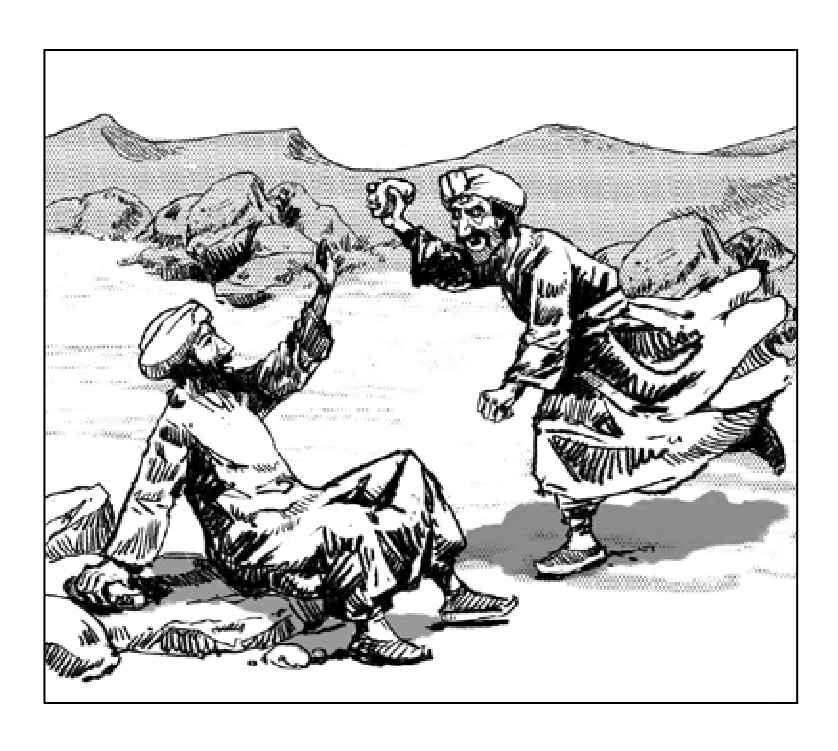
قال خلف: أنتَ؟ أيُّ حِصّةٍ لكَ عندي؟



قال: أمَا اتّفَقْنا على قتلِه وأخْذِ المالِ مُنَاصَفَةً؟

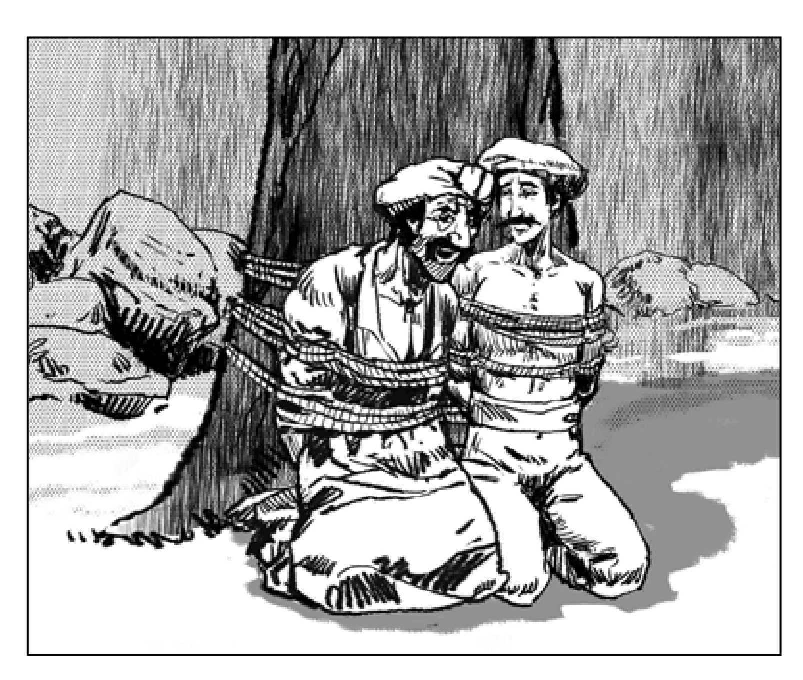
الجريمةُ الثّانيةُ

فلمّا سَمِعَ أحمدُ ذِكْرَ القَتلِ أحَسَّ كأنّ قلبَه قَد انْحَلَّتْ عُراهُ وسقطَ في صَدْرِه، واصْفَرَّ وجهُهُ حتّى لم تَبْقَ فيه نُقطةٌ من دمٍ، ولكنّ أخاه كانَ في شُغْلٍ عنه. كانَ في عِراكٍ مع صاحِبِه، يتقاتَلانِ على ميراثِ أحمدَ.



كادَ الرّجُلُ يتغلّبُ على خَلَفٍ و يَبْطِشُ به، فمَا كانَ من خَلَفٍ إلّا أنْ أخَذَ حَجَراً ضَخْماً فرماهُ به على رأسِهِ، فسقَط، فأسرَعَ إليه فقَيَّدَه ووضَعَه إلى جَنْبِ أخيه. وصارَ الرجلُ ينادي والأخُ يتوَسَّلُ، وخَلَفٌ يضحكُ منهما ويَسخَرُ بهما.

وراحَ الرّجلُ يَعتذِرُ لأحمدَ ويقولُ له: سامِحْني، فأنا الشرّيرُ الذي أعانَ الظّالِمَ على ظُلْمِهِ فسلَّطَهُ اللّهُ عليهِ.



فقال له أحمدُ: لقد سامحتُكَ، سامَحَك الله.

قال: إنّكَ قد أردتَ له الخيرَ وأرادَ لك الشّرَّ.

قال أحمدُ: إنّ الله سيَنتَقِمُ منهُ ويَنصُرُني عليه.

فعادَ الخبيثُ يضحكُ وقال: سنرَى لِمَنْ يكونُ النّصرُ.

وكانَ الرجلُ يحاولُ حَلَّ القَيْدِ عن يدَيه، وأوشَكَ أنْ ينجَحَ، فرآه خلفٌ، فأمْسَكَ بالحَجَرِ وضرَبَه به ضَرْبَةً هَشَّمَتْ رأسَه فمات.

ثم أقبلَ على أخيه فبَرَكَ على صَدْرِهِ وأخرَجَ قِراباً فيه سِكّينٌ طويلٌ، وقال: سأذبَحُك ذَبْحَ النِّعاجِ يا لِصُّ.

فجعلَ أحمدُ يَصْرُخُ، فقالَ له: اُصْرُخْ ما شِئْتَ، فالبَرِّيَّةُ خالِيةٌ وليسَ إلّا أنا وأنتَ، فمَن يُخَلِّصُك؟

قالَ: اللهُ.

قال: خَلِّ اللهَ يُخلّصك.

قال: لا تَكفُرْ وَيْلَك!

قال: اِخْرَسْ!

فلمّا رأى الموتَ جعَلَ يتشَهَّدُ ويدعو ويَستغفِرُ.

انتقامُ الله

يا أيُّها القُرّاء: سأقطعُ القِصَّةَ هنا، وسوف أقفِزُ رأساً إلى الخاتمة.

مضَتْ لَيلتانِ ووصلَتْ قافِلَةٌ، فرأى مَن فيها البغالَ واقفةً فتعجّبوا، ثم رأَوا أحمدَ مُكَتَّفَاً لا يستطيعُ



أنْ يتكلّمَ مِنَ الضَّعْفِ والرجلَ مَيتاً وخَلَفاً مَذبوحاً والسكّينُ في يده.

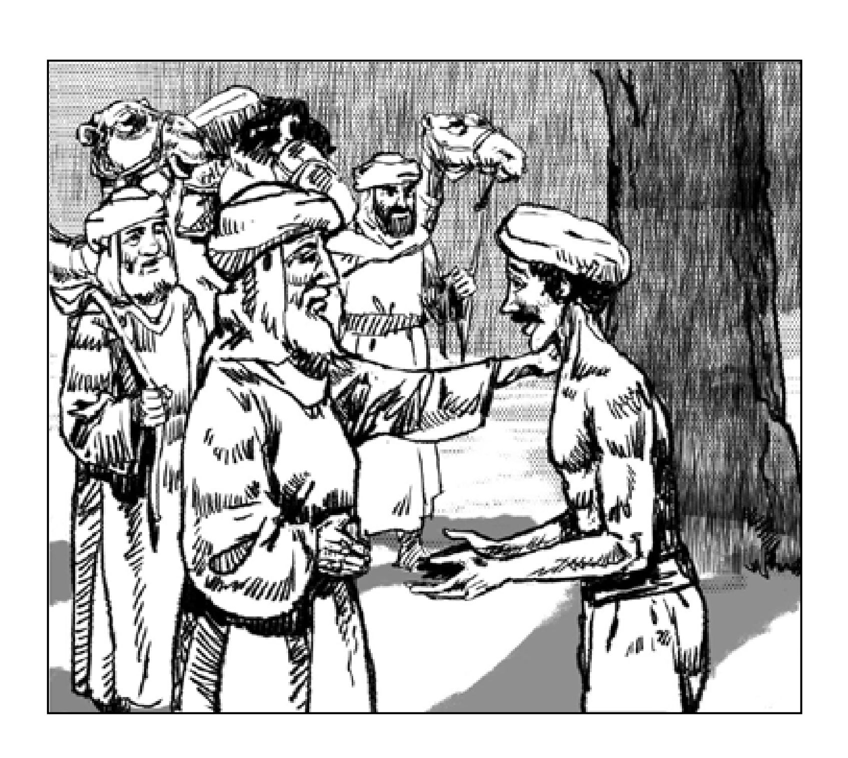
ففكّوا أحمدَ وسَقَوْهُ وأطعموه، فلمّا قَوِيَ خَبَّرَهُم الخبرَ. قال أنّ خَلَفاً لمّا قَعَدَ على صدرِه لِيَذبَحَه عَلِقَ السِكّينُ في القِرابِ فلَمْ يَخْرُجْ، فوقفَ وأمسَكَ بالقِرابِ بيدِه اليُسرى مِنْ أسفلِه، مِن جهةِ خاصِرَتِهِ، وجعلَ يَشُدُّها بِيَدِه اليُمنى وهو يَسُبُّ ويَلعَنُ، وأحمدُ يدعو اللهَ ويَستغيثُ به. وخرَجَت



السكّينُ بقُوّة، وكانت حادّةً كموسَى الحلّاق، وكان نَصْلُها إلى جِهَتِهِ، فجَرَحَتْهُ من رَقَبَتِه جُرحاً واسعاً، فوقعَ والدّمُ يَتَدفّقُ منه وهو لا يَقْدِرُ على شيء، حتى نزَفَ دمُه فمات.

إنّ اللهَ يُدافعُ عن الذين آمنوا

تعجّبَ القومُ، فقالَ لهم أحمدُ: لا تَعْجَبوا، فإنّ أبي قالَ لي قبلَ موتِه: إنّ أخاك سيَعْتدي عليك،



فمَن يحميك منه بعدَ موتي؟ فقلتُ: إنّ الله هو الذي يَحميني. فانظُروا كيف حَمَاني، وكيف انتقَمَ لي منه فذبَحَه بِيَدِ نَفْسِه!

قالوا جمعياً: لا إلهَ إلّا الله، إنّ مَن كانَ مَعَ اللهِ فلا يُبالي. إنّ الله يُمهِلُ الظالِمَ ولا يُهْمِلُه. إنّها عِبْرَةٌ، ولكِنْ أينَ مَنْ يَعتبرُ؟

-تَمَّتْ-

وِزارَةٌ بعُنقودِ عِنَب

قال الرّاوي :

قَدِمْتُ بغدادَ أيامَ الخليفةِ المُستنجِدِ، فجعلتُ أَجُولُ في طُرُقِها ومَسالِكِها وأعبُرُ جُسورَها ومَشارِعَها، حتى وقفتُ العَشِيَّةَ على قصرٍ عظيمٍ على بابِهِ الجُنْدُ، فسألتُ: ما هذا؟

فقالوا: هو قَصْرُ الوَزيرِ.

وكان إلى جَنْبِ القَصرِ مَسجِدٌ لَطيفٌ نَظيفٌ، وجَماعَةٌ عليهم زِيُّ العُلماءِ والمُحَدِّثينَ يَدخلونَ إليه. فدخلت معهم، فوجدتُ مجلساً حافلاً وكُتُباً مفتوحَةً، وقد أخَذَ القومُ يَتذاكرون الحديثَ، ثم أخَذوا في الفِقْهِ والعَرَبيّة. وكانَ في صَدْرِ المَجلسِ رَجُلٌ عالِمٌ فاضِلٌ، ما يكونُ فَنٌّ إلّا كانَ له فيه كلامٌ يَدُلُّ على تَمَكُّنِهِ فيه وإحاطَتِهِ بمسائِلِه. وكانَ فصيحَ اللسانِ قَوِيَّ الحُجَّةِ. ولَبِثُوا على ذلك إلى أنْ أَذَّنَ العِشاءُ، فقاموا يستَعِدُّونَ للصّلاةِ، وتَفَرَّقَ المَجْلِسُ،

فمِنْ ذاهبٍ ليتوضأَ ومِن مُتوضِّئٍ قامَ يتَنفَّلُ.

فسألتُ رجلاً كانَ إلى جَنْبي: مَن هذا المتكلِّمُ في كل فَنٍّ المُشارِكُ في كل عِلم؟

قال: عجباً لك! ألا تَعرِفُه؟ هذا الوزيرُ يَحيى بنُ هُبَيْرَة. أما سمعتَ به؟

قلتُ: ومَنْ لم يَسمَعْ به وهو وَزيرُ الخليفةِ مِنْ سِنين؟ ولكنّي لم أكن أعرفُ أنّه وَزيرٌ يتكلّمُ كلامَ العُلَماء.

قال: إنّه كانَ عالِماً قبلَ أنْ يكونَ وزيراً، قَدِمَ بغدادَ في طلبِ العِلْمِ فجاءتهُ الوِزارةُ.

قلتُ: وبِمَ نالَ الوِزارَةَ؟

فقال رجلٌ مِنْ ورائي: بعُنقودِ عِنَبٍ!

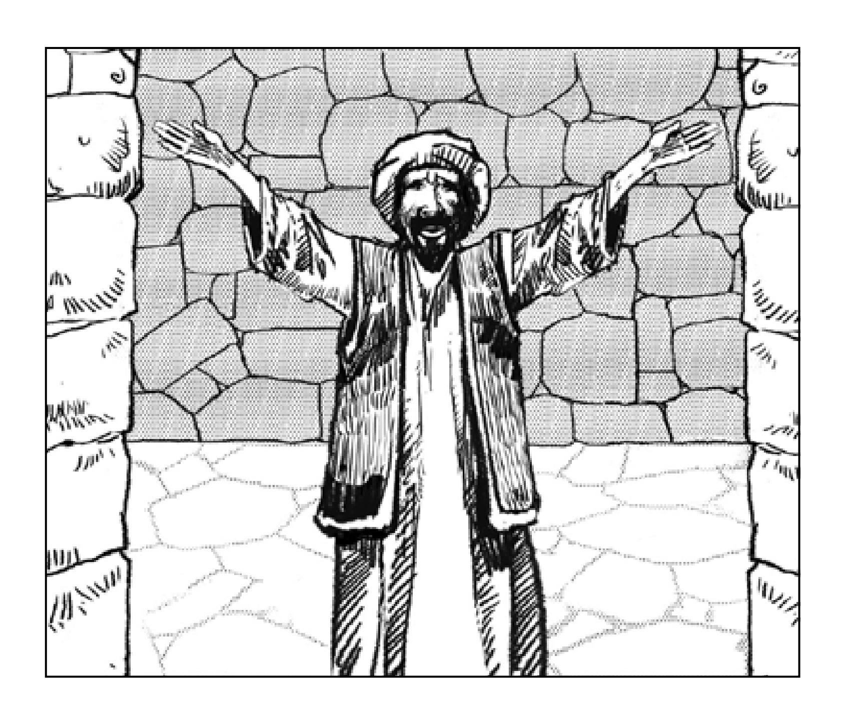
فالتَفَتُّ، فإذا هو الوزيرُ نفسُهُ، فخَجِلْتُ منه.

فقالَ: لا عليكَ، لا تخجَلْ، وانتَظِرْ إذا قُضِيَت

الصّلاةُ فذَكِّرْني لأُحَدِّثَكَ الحَديثَ.

واجتمَعَ المجلِسُ بعدَ الصلاةِ، فلم يَنتظِرْ حتى أذَكِّرَه، واندفعَ فرَوَى قِصَّتَه.

قال: لمّا قَدِمْتُ بغدادَ لم أكُنْ أبتَغي وِلايةً ولا مَنْصِباً، إنّما كنتُ أبتغي العِلْمَ، وكنتُ أنوي أنْ أعمَلَ بما علِمْتُ. ولَبِثْتُ على ذلك حيناً، أَخْتَلِفُ إلى المُحَدِّثينَ صَدْرَ النّهارِ، ثمّ أقْصِدُ الفُقَهاءَ، ثم أقصد



حَلَقاتِ النُّحاةِ والرُّواةِ وأهْلِ العَرَبيّة، حتّى ألمَمْتُ من كل شيءٍ من ذلك بِطَرَف. ثم أقبَلْتُ على الحديثِ والعربيّة، فما ادَّخَرْتُ في تَحصيلِهما جُهْداً ولا وَقْتاً، حتّى إذا قَلَّ ما كان مَعي من مالٍ وكَرِهْتُ أن آكُلَ الدّنيا بالدينِ وآخُذَ على العِلمِ أجْراً اضطُرِرْتُ إلى طلبِ التَّصَرُّفِ (أي التوظيف بوظيفة)، فما تركتُ ديواناً مِنَ الدّواوينِ إلّا طلبتُ العَمَلَ فيهِ، والأبوابُ تَنْسَدُّ في وجهي، حتى لم يَبْقَ معي شيء.

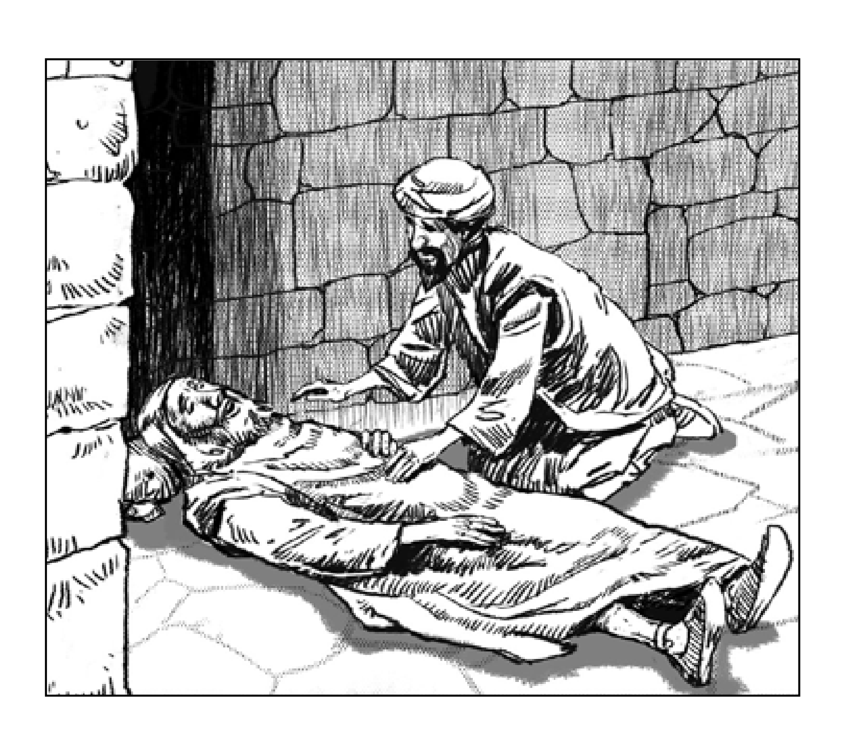
وطَوَيْتُ يومينِ بلا طعامٍ، وأنِفَتْ نفسي أنْ أسألَ أحداً أو أطلبَ من رفيقٍ أو صديق، فمَشَيْتُ في طُرُقِ بغدادَ على غير هُدىً، أرى الناسَ وهم على دَوابِّهم يَضحكونَ ويتحدّثونَ، لا يَشْكونَ جوعاً ولا حاجةً، فأُحِسُّ كأنّهم من عالَمٍ آخَرَ.

وما زِلْتُ أمشي حتى خرجتُ إلى الصحراءِ، وأبعدتُ ونالَ منّي التّعَبُ والجوعُ، ولم أعُدْ أستطيعُ الوقوفَ، فنظرتُ فوجدتُ مَسجِداً خَرِباً يبدو عليه

أنه مَهجورٌ، فقلت لنفسي: أدخلُ فأصلّي فيه ركعتينِ وأسألُ الخالِقَ أنْ يُغنِيَني عن المَخلوقين.

فدخلتُ فصَلَّيْتُ ودَعَوتُ الله. وكلُّ من يدعو الله صادقاً في التوجُّهِ واثقاً من الإجابةِ لا بُدَّ أنْ يُستجابَ دعاؤه، فيُعطيَهُ الله ما يطلبُ أو يُعوِّضَهُ عنه خيراً منه.

والْتَفَتُّ قبلَ أنْ أخرُجَ، فرأيتُ في زاويةِ المسجدِ حَصيراً بالِياً عليه رجلٌ عليلٌ مُشْرِفٌ على المَوْتِ.



وكان مُصْفَرَّ الوَجهِ شاخِصَ العينينِ غائرَ الوَجْنَتينِ، تحتَ عينَيْهِ خُطوطٌ زُرْقٌ وشَفَتاهُ جافّتانِ مُقَرَّحتان، وهو يَئِنُّ أنيناً خافِتاً ويُحَشْرِجُ كأنّه يُحتَضَرُ.

فدَنَوْتُ منه، فوجدتُ رائحتَه تَزْكُمُ أنفي وتكاد تَخنُقُني، فابتعدتُ وقلتُ لنفسي (أو أنّ الشيطانَ هو الذي قال لي): ما لكَ ولَهُ؟ اِمْشِ واتْرُكْهُ فإنّه مَيِّتٌ على كلّ حال، وأنتَ لا تستطيعُ أنْ تصنعَ له شيئاً، فما بِكَ قُوّةٌ على عَملِ شيء وهَمُّكَ يكفيك.

ثم تذكّرتُ أنّ مِنْ أقلّ حَقِّ المُسلمِ على المسلمِ وحَقِّ الإنسانِ على الإنسانِ ألّا يَدَعَهُ في مثلِ هذهِ الحالِ ويَمضي، وأنّ عليَّ أنْ أعمَلَ ما أقدِرُ عليه وأساعدَهُ بمِقدارِ طاقتي، فرجَعْتُ إليه وصبَرْتُ على سوءِ مَنْظَرِهِ ونَتْنِ رائحتِهِ ابْتِغاءَ ثوابِ الله.

قلتُ له: مَن أنت؟ وما شأنُكَ؟

ففتحَ عينَيهِ وأدارَهُما حولَه مَلِيّاً كأنّه لا يَرى، ثم أغلقَهما وعادَ إلى أنينِهِ وحَشْرَجَتِه. فعُدْتُ أسألُه: هل

تريدُ شَيئاً؟

فنظرَ إليّ وثبَّتَ بصَرَهُ فيّ، فلمّا رآني قال: عِنَب.

عِنَبٌ؟ لقد انتظرتُ كلَّ شيء إلّا هذا! مِن أينَ آتيهِ بالعِنَبِ وأنا في البَرِّيَّةِ، ولا بَيّاعَ ولا شَرَّاءَ؟ ولو وجدتُ بَيّاعَ العِنَبِ فإنّ العِنَبَ في أوّلِ مَوْسِمِه وليسَ منه إلّا بَواكيرُ غاليةُ الثّمَنِ، فلا يُباعُ شيءٌ منهُ بأقَلَّ مِن دِرهَم. فمِن أينَ آتي بِدِرْهَمٍ أشتري به عِنَباً وأنا باقٍ بلا طعامٍ من يومين؟ لو كان معي درهَمٌ لاشتريتُ به رغيفاً أملأ به مَعِدَتي!

ولَبِثْتُ واقفاً، فعادَ المريضُ فقالَ بِلَهْفَةٍ وتذلّل: أريدُ عِنَباً.

فقلتُ في نفسي: رجلٌ يموتُ وهو يَشتهي عِنَباً! لآتِيَنَّهُ بِهِ ولو كانَ فيه ذَهابُ روحي.

فقلتُ: انتظِرْ، سآتيكَ بالعنب.

وذهبتُ فجعلتُ أعدو حتى بَلَغْتُ طَرَفَ البلدِ،



فوجدتُ بَيّاع عِنَب، فسألتُه: بِكَمْ؟

قال: بِدِرْهَم.

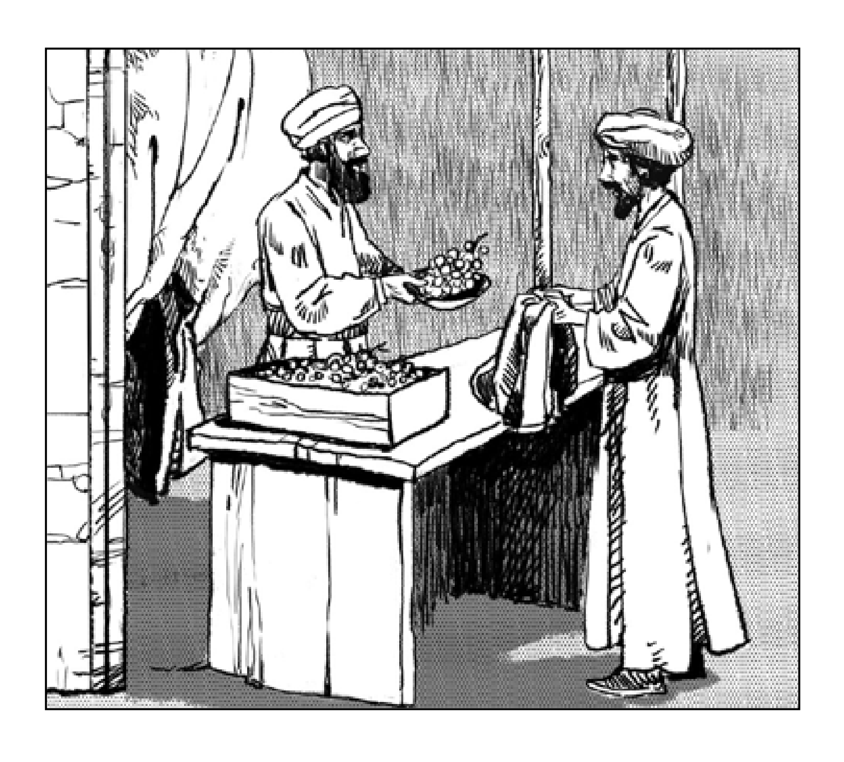
فنزَعْتُ ردائي وقلت له: إنّي تركتُ رجلاً يموتُ وهو يشتهي العِنَبَ، فهل تأخذُ هذا الرداءَ بِدِرْهَمٍ وتُعطيني عنباً؟

قال: هذا الرّداءُ لا يساوي إلّا نِصْفَ درهم، فإنْ

شئتَ أنْ تَنزِلَ عنهُ بنصفٍ فهاتِهِ.

ولم يكُنْ في الوقتِ سَعَةٌ لِجِدالٍ وقيل وقال، فقلت: خُذْهُ.

فأخذَه وأعطاني عُنقوداً واحداً. فحملتُه وعُدْتُ أعدو، وكان حَلقي قد جَفَّ من العَطَشِ، فهَمَمْتُ أنْ آكُلَ منه شيئاً، ثم رَدَعْتُ عنه نفسي وتركتُه للمريض، فَعَلْتُ ذلك لله وحدَه. وماذا أطلبُ من غيرِهِ وليسَ



مع هذا المريضِ مالٌ فيُعطيني منه ولا له جَاهٌ فأنتفعُ بجاهِهِ، وليسَ عنده مَن يراني فيمدَحُني ويُثني عليّ؟

ثم وصلتُ وقد انقطعَ نَفَسي من التعب، أخافُ ألّا أدرِكَ الرجلَ، فلمّا رأيته قلت: هاكَ.

ففَرِحَ وتحرّكَ، وأخَذَ العُنقودَ فأكلَه، فانتعَشَتْ به نَفْسُهُ وعادت إليهِ روحُه، فقال لي: لقد سَرَرْتني، سَرَّك الله، فارفعْ طرَفَ هذا الحصير.



فرفعته، فقال: احفِرْ ها هنا.

فحفرتُ فأخرجتُ كيساً مَخْتوماً، فقال لي: إنّي مَيِّتٌ، فإذا غَسَّلْتَني وصَلَّيْتَ عليّ ودفنتَني فلك هذا.

فمَدَدْتُ يدي فأخذتُه منه، ونظرتُ فيه بلا شعورٍ فإذا هو مملوءٌ بالذهبِ الأصفرِ. فكذَّبْتُ بَصَري، وعُدْتُ أنظرُ إليه وأُخرِجُ ما فيه فألْمَسُهُ بيدي، أحْسَبُ أنّي في منامٍ أو أنّها خَيَالاتُ جَوْعانَ يَحْلُمُ مُستيقظاً



بالذهب، فإذا أنا أَجِدُ ذَهَباً حقيقياً أراهُ غيرَ حالِمٍ ولا مجنون.

وكِدْتُ أطيرُ من الفرح، ثم تنَبَّهَ ضميري فخِفْتُ ألّا يكونَ هذا المالُ له أو أن يكونَ له وارِثٌ هو أحَقُّ به مني، فقلتُ له: خَبِّرْني أوّلاً، لِمَنْ هذا المالُ؟ هل هو لكَ؟

قال: نعم.

قلتُ: أمَا لكَ وارثٌ؟ أما لك قريبٌ؟

فانطَلَقَ يحدّثُني بصوتٍ خافِتٍ حديثاً متقطّعاً لا أكادُ أتبيّنُ كلماتِهِ إلّا بِجَهْدٍ، قال:

ليسَ لي في الدّنيا كلِّها إلّا أخٌ واحدٌ، تُوُفِّيَ والداه وتركاه لي، فكنتُ له أباً وكنتُ له أمّاً، وكنتُ أرعَاهُ وأسْهَرُ عليه، حتّى كَبِرَ، فأدخلتُه في تجارتي وجعلتُ له شَرِكةً معي.

وكنّا نَصْحَبُ القوافِلَ إلى الشّامِ وإلى فارس،

نشتري ونبيعُ، حتّى كان من عَشْرِ سنينَ، وكنّا قافِلينَ مِن الشّامِ قد بِعْنا وربحنا، فقسَمْتُ المالَ بيني وبينَه، فوضعتُ حِصَّتي في كيسٍ وحِصَّتَه في كيس. وكانَ الكيسانِ معي، فخرجَ علينا اللصوصُ، فدافَعْنا ما استطعنا، ولكنّهم غلبونا وقتلوا منّا عدداً وجَرحوا عدداً، وكنتُ مَع مَنْ جُرِح، فسقَطْتُ، فحَسِبوني قد مِتُّ.



ولمّا حَمِيَتْ عليّ الشمسُ من اليوم التالي قُمْتُ فلم أجِدْ حولي إلّا بَرِّيَّةً خاليةً وكُثْباناً من الرَّمْلِ وجُثَثاً مَطروحةً مُقَطَّعَةً، أمّا القافلةُ وأهلُها واللصوصُ وأعوانُهم فلم أجِدْ من ذلك كلِّه أثَراً. وكانَ هَمّي أن أجِدَ أخي وأعرِفَ خبَرَهُ، فَفَتَّشْتُ عنه بين القَتلى فلم أجِدْهُ، فقلتُ في نفسي: لا بُدَّ أنّه أُسِرَ مع مَنْ أُسِرَ أو أنّه هربَ مع مَن هرب. ومَشَيْتُ على رِجليّ يومينِ حتّى وجدتُ جماعةً مِن البَدْوِ، فنزلتُ فيهم، فأطعموني وداوَوا جروحي. وبقيتُ عندهم حتى شُفيتُ.

ثم خرجتُ أفتّشُ عن أخي، ووَفَّرْتُ له كيسَهُ وحلَفْتُ لا أمَسُّهُ، وجعلتُ أدورُ في البُلدانِ أسألُ عنه وأنفقُ ممّا كانَ معي، فلم أَدَعْ أحداً ممّن كانَ في القافِلَةِ إلّا سألتُه ولا بلداً ممّا اعتادَ أنْ يدخُلَهُ إلّا دخلتُه. وتركتُ تجارتي وانصرفتُ عن كلّ عملٍ إلّا التفتيشَ عنه، حتى جئتُ بغدادَ من عَشَرةِ أيامٍ، ولم يكُنْ قد بَقِيَ معي من مالي شيءٌ، ولم أسمحْ

لنفسي أنْ آخُذَ من مال أخي شيئاً، فبقيتُ هذه الأيامَ بلا طعام. وكنتُ مريضاً، فاشتدّ عليّ المرضُ حتى صِرتُ إلى ما ترى، ولم يسألْ عنّي أحدٌ حتّى ساقكَ الله إليّ. وهذا المالُ مالُ أخي، فإنْ وجدتَه فادفَعْهُ إليه، وإلّا فهو لك. وما أحسَبُكَ تَجِدُه، وما أظنُّهُ حَيّاً، فلو كان حَيّاً لَلَقيتُه أنا.

قال الوزيرُ: ولَبِثْتُ عندَهُ أُعنَى به وأخدِمُهُ حتّى كانت العَشِيّةُ، فأغفَى، فحَسِبْتُه نامَ، ونظرتُ فوجدتُ نَفَسَه قد انقطَعَ، فجَسَسْتُهُ فإذا هو قد مات.

فغَسَّلْتُهُ وكفَّنْتُهُ، وحفَرْتُ في أرض المسجدِ حُفرَةً غيرَ عميقةٍ لمْ أقْدِرْ -من ضعفي وجوعي- على أكثرَ منها، ودفنتُه وخرجتُ أمشي. وما بي طاقةٌ على المشي، ولكنّ ثِقَلَ الذّهبِ في يدي ورَنينَه في أُذُني كان قُوّةً لي، حتّى وصلتُ إلى البيّاعِ فقلت له: أعطِني عِنَباً وخُبزاً وما تقدِرُ عليه من الطعام وأعِدْ لي ردائي.

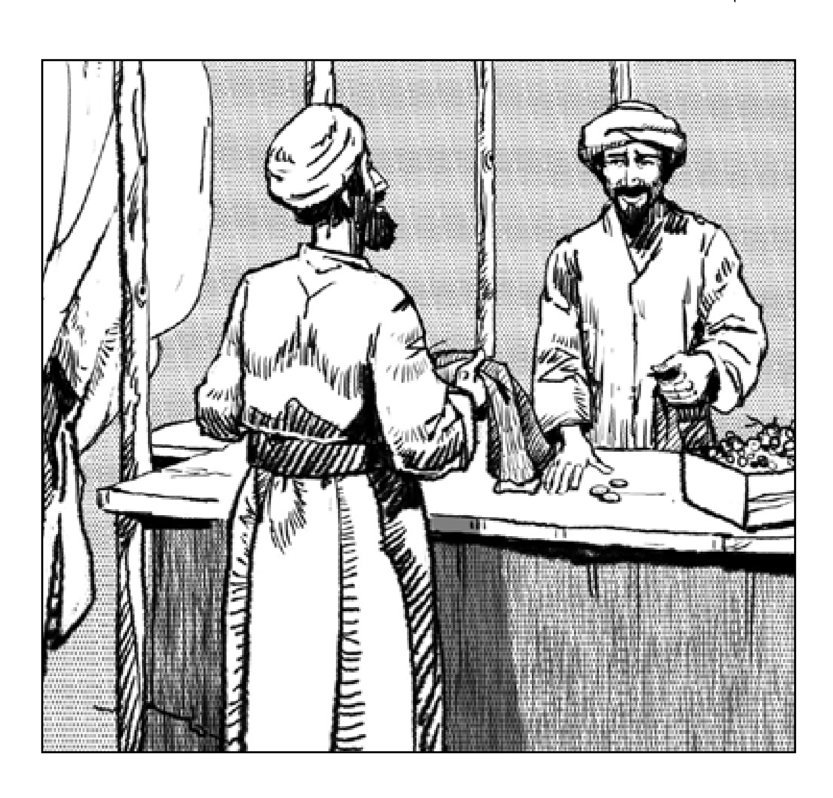
فنظر إليّ يَحسَبُني قد جُنِنتُ. ومِن أين لي ثَمَنُ

هذا كلّه وقد رَهَنْتُ ردائي صباحاً على نصف درهم؟

قلت: عَجِّلْ وَيْحَكَ، وهاكَ ديناراً.

فلمّا رأى الدينارَ تغيّرَتْ نظرتُه إليّ. وكأنّه قد استضعفَني وطَمِعَ فيّ فقال: من أين لك الدينارُ؟

قلتُ: وجدتُه في أرضِ ذلك المسجدِ المهجورِ (ولم أكُنْ كاذباً).



فأعطاني ما طلبتُ، فأكلتُ واشتَدَّتْ نفسي. وكان ثمنُ ما أخذتُه درهماً ونصفَ درهم، فأعاد لي ردائي وَرَدّ لي ثمانيةَ عَشَرَ درهماً، أخذتُها ومَشَيْتُ على الجادّةِ حتّى بلغتُ النهرَ لأعبُرَ، فوجدتُ مَلّاحاً معه زَوْرَقٌ صغيرٌ يناديني، يقول: اركَبْ معي أوصلك بفَلْسَيْنِ.

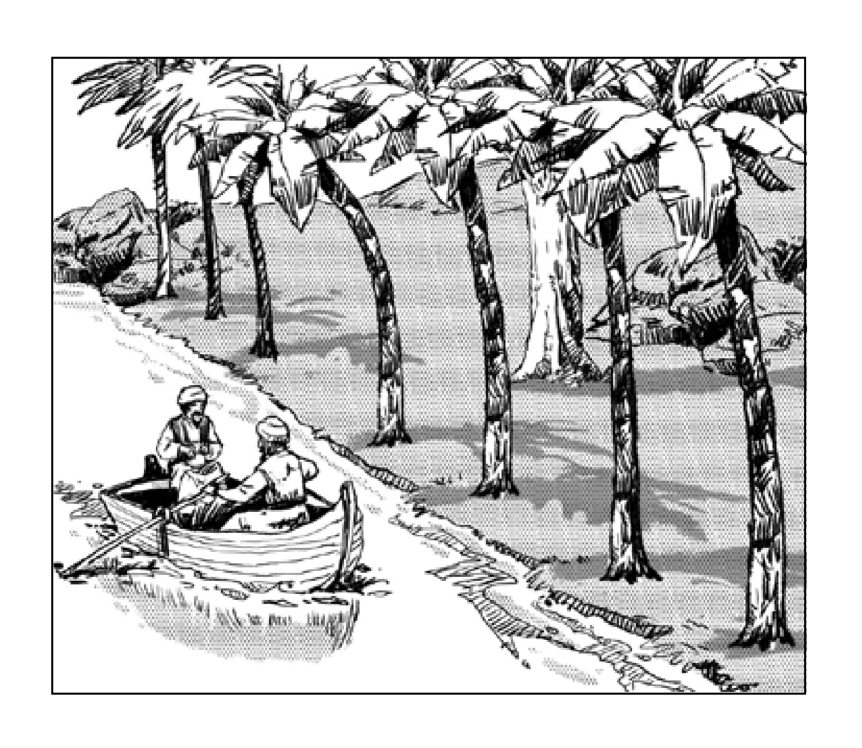
فركبتُ معه، فوجَدتُه شاباً حَدَثَ السنِّ، ولكنّ ما يبدو عليه مِنَ الهَمِّ والضَّعْفِ والفَقْرِ قد شَيَّخَهُ قبلَ الأوانِ. وأنعمتُ النّظرَ فيه فتوهَّمْتُ أنّ فيه شَبَهاً من الرّجلِ الذي ماتَ في المسجدِ.

قلتُ: مِن أين أنتَ؟

قال: من الرُّصافَة.

قلت: أمَا لك أهلٌ؟

قال: بلى، لي زوجةٌ وسبعةُ أولادٍ، ونحن نعيشُ مِن هذا الزَّورقِ، فلا نكادُ نجدُ ثَمَنَ الخُبْزِ.



قلتُ: أمَا لك أخٌ؟

فارْبَدَّ وَجهُه وتغيَّرَ وقال: كانَ لي أخٌ لا جزاهُ الله خيراً ولا رَحِمَه!

قلت: ولِمَ وَيْحَكَ؟!

قال: لأنّه هو الذي صَيَّرَني إلى هذه الحالِ.

قلتُ: خَبِّرْني خبَرَك.

قال: خَبَري طويلٌ، فلا تَنْكَأْ في قلبي جُرحاً كنتُ أظنّه اندمَلَ.

قلت: خَبِّرْني.

قال: كان لي أخٌ هو رَبّاني وهو علّمَني وأشرَكَني معه في تجارتِه، وكان لي خيرَ أخٍ، بل كان لي أباً، حتّى لَعِبَ به الشيطانُ يوماً فسرَقَ مالي وتركني أواجِهُ الموتَ.

قلتُ: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: رجَعْنا مِن تجارةٍ لنا، فتظاهَرَ بالوَرَعِ وقَسَمَ المالَ بيني وبينه، ولكنّه أبقى مالي معه، يزعُمُ أنّه يحفظُه لي. ثم واطَأَ جماعةً من اللصوصِ، فطَرقونا ليلاً وهَجَموا علينا ذَبْحاً وجَرْحاً، ثمّ هَربوا وهربَ معهم وتَركَني مُلقَىً مَعَ الأمواتِ، لا مالَ معي ولا دابّة، فجعلتُ أمشي في حَرِّ الشّمسِ التي تُلهِبُ الدماءَ، حتّى أدركتُ جماعةً من التجّار، فَرَقُّوا لِحالي وحَملوني معهم، ننتقلُ من بلدٍ إلى بلد، وأنا أسألُ

عن أخي الغادرِ فلا أسمعُ عنه خبراً، حتّى وصلتُ بغدادَ فاشتغلتُ فيها غلامَ ملّاحٍ، أدأَبُ مِن الفجرِ إلى الليلِ بدرهَمٍ واحد. ثمّ زَوَّجَني المَلاّحُ الذي كنتُ أعمَلُ له بِنْتَه وأورَثني زَورَقَه، فأنا أعيشُ منه العَيْشَ الذي تراه.

قال الوزيرُ: وكان يتكلمُ، وكنتُ أستمِعُ له هادئَ الجَوارحِ ساكِنَ الأعضاء، ولكنّ في نفسي زَلْزَلَة. إنّ الأفكارَ والعواطِفَ تَصْطَرِعُ فيها اصْطِراعاً، فلَمْ تَطُلْ فرحتي بالمالِ الذي نِلْتُه، ولم تكُنْ إلّا ساعةٌ حتّى وجدتُ صاحبَه بعد أن فَتَّشَ عنه أخوه عشرَ سنينَ ولَمْ يَجِدْه! فهل أدفعُه إليه وأرجِعُ صِفْرَ اليَدَيْنِ ليسَ في يدي منه شيء بعدَ أنْ صارَ في يدي وأمَّلْتُ فيه الآمالَ؟ أأعودُ إلى الجوعِ والتشَرُّدِ بعد أنْ حملتُ كيسَ الذهَبِ على عاتقي؟

وجعلَتْ نفسي تقولُ (أو هو الشيطانُ الذي يقولُ لي): إنه رَاضٍ بعَيْشِهِ قد تَعَوَّدَه واطمأنَّ مُكرَهاً إليه، ولعلّكَ إنْ أعطيتَه المالَ أفسَدْتَه به وعَوَّدْتَهُ التَّرَفَ

والفَسادَ، فَدَعْهُ واكتُمْ خَبَرَ الكيسِ عنه.

فأكادُ أميلُ إلى ما قال، فيهتفُ بي ضميري: لا يا رجل! لا تأكُلِ المالَ الحَرامَ فإنّه سُمٌّ لآكِلِه. اِدْفَعْ إليهِ مالَهُ والله يُعوِّضُك خيراً منه.

فتقولُ النّفْسُ: إنْ كُنتَ فاعلاً فأعْطِهِ عَشَرةَ دنانيرَ يفرحُ بها ويطيرُ بها سُروراً، وخُذ الباقي لك فاتَّجِرْ به واشتَغِلْ واربَحْ، وكلّما نَفِدَتْ منه عَشَرةُ دنانيرَ تُعطيه عَشرةً أخرى.

فيقولُ الضَّميرُ: أمَا رأيتَ الأخَ كيفَ حَرَمَ نَفْسَه كلَّ شيء وأشرفَ على الموتِ ولم يَمْسَسْ هذا المالَ؟ فكيف تأخُذُه أنت؟ أوَلَمْ يأمُرْكَ -لمّا دفعَه إليك- أن تُسَلّمَه إلى أخيه إذا وجدتَه؟ فكيفَ تُمْسِكُه عنه وهو أمامَك، وهو فقيرٌ مُعيلٌ مُحتاج؟

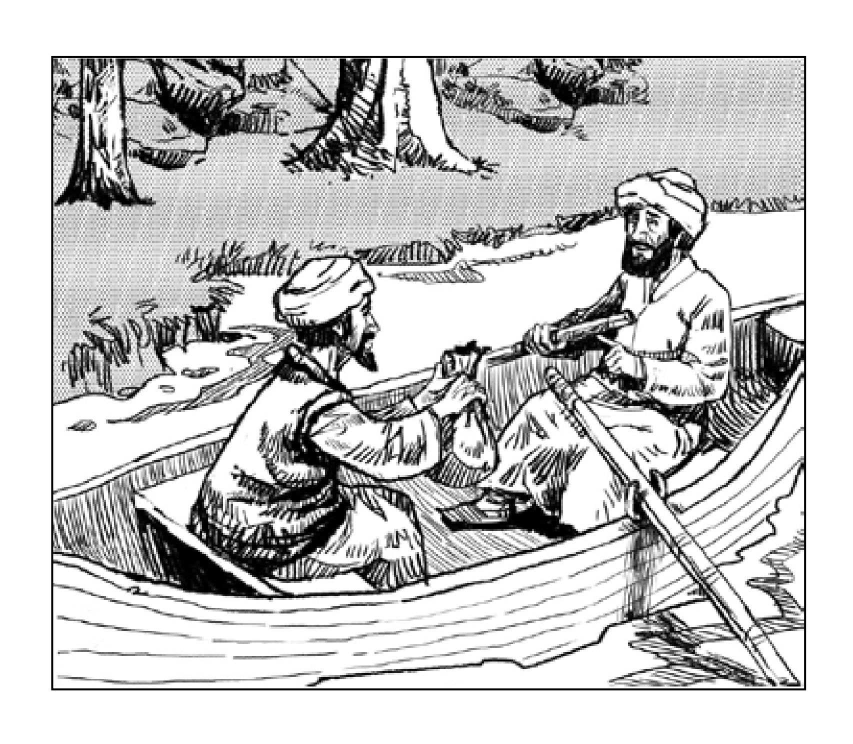
وما زلتُ أترَدّدُ بينَ خاطرٍ وخاطرٍ، خاطرٍ مِنَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ التي يوحي إليها الشيطانُ، وخاطرٍ مِنَ الضَّميرِ الذي يُمِدُّهُ الدِّينُ ويُؤَيِّدُهُ الشَّرْعُ.

فاسْتَعَذتُ بالله، واغْتَنَمْتُ لَحْظةً غلَبَ فيها الضميرُ فقلتُ للرجل: اِفْتَحْ حِجْرَك.

وصَبَبْتُ فيه الذّهبَ، فارتاعَ ووثَبَ كأنّه قد جُنَّ وقال: ما هذا؟

قلتُ: انظُرْ، أليسَ هذا كيسَك؟

فأمسَكَه ونظرَ إليه، ثم نظر إليَّ وقال: بلى والله، فمِنْ أينَ جئتَ به؟

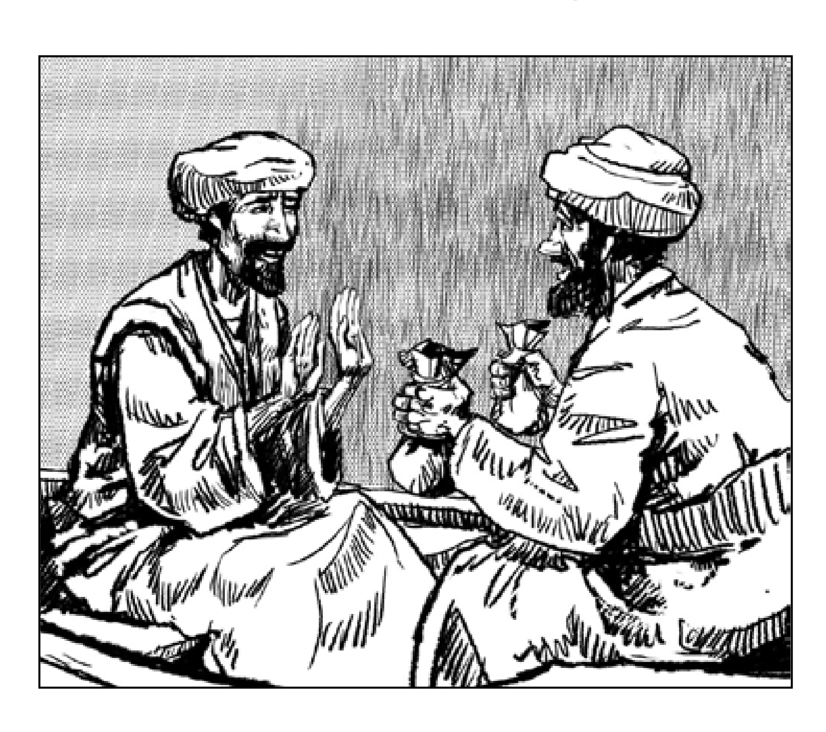


فقَصَصْتُ عليه القِصَّةَ من أولها، فسَجَدَ لله شكراً، وجعلَ يستغفرُ اللهَ ويسألُه الرَّحمةَ لأخيه، ثم أقْبَلَ يَقْسِمُ المالَ قِسْمينِ، فقلت: ما هذا؟

قال: أَقْسِمُهُ بينَنا، نِصْفٌ لي ونصفٌ لك.

فقلت: لا والله، وهذي بقيّةُ الدينار الذي صرفتُه، فسامِحْني بالدرهمينِ اللذين نَقَصَا منه.

فجَعَلَ يُلِحُّ عَلَيّ ويسألُني أنْ آخُذَ منهُ شيئاً،



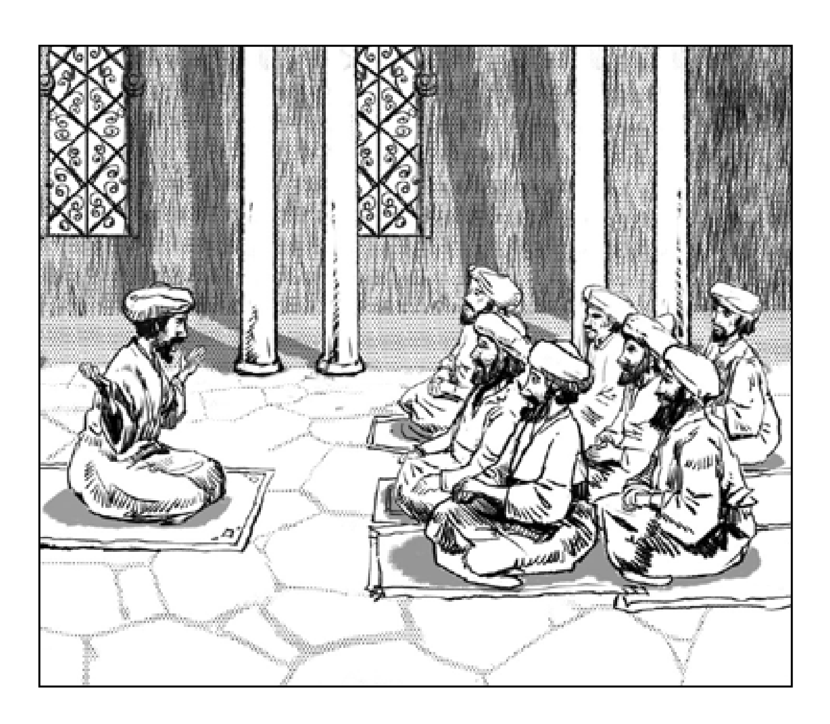
فحلَفْتُ له بأوثَقِ الأَيْمانِ أنّي لا آخُذُ منه فَلْساً واحداً.

ثم تركتُه وعُدْتُ أمشي على غير هُدَىً، أُحِسُّ كأنّي كنتُ في حُلُمٍ عَجيبٍ وصحَوْتُ منه. وجَعَلَتْ نفسي تلومُني وتقول: أمَا كان خيراً لك لو أنّك أخذتَ نصفَ المالِ حلالاً؟ أفتعودُ الآنَ إلى لَذْعِ الجوعِ وذُلِّ الحَاجةِ؟

وكنتُ أستمعُ إلى هَواجِسِ النَّفْسِ ولكنّي لا أُحِسُّ نَدَماً، لأنّ ثِقَتي بالله كانَتْ غالِبةً على نفسي.

وكنتُ أستَشْعِرُ الطُّمَأْنِينَةَ والرِّضا وأنا أمشي لا أعرفُ لي وِجْهَةً حتى مَرَرْتُ -من غيرِ أن أشعُرَ- بدار الوِزارَةِ، جِئتُها بِقَدَمي بحُكْمِ العادةِ لا بِعَقلي، فدَخَلْتُ أسألُ كما كنتُ أسألُ كلَّ يومٍ: هل مِنْ عملٍ لي أوْ أنصرف؟

وكانوا من سِنينَ يقولونَ لي: "لا"، وكنتُ أعرِفُ الجوابَ سَلَفاً، لذلكَ ألقَيْتُ سؤالي والْتَفَتُّ لأعودَ، وإذا بهم يقولونَ لي: "نعم".



"نعم" أسمعُها لأوّلِ مَرّةٍ بعدَما سَمِعْتُ "لا" ألْفَ مرّة. ووُلِّيتُ عَمَلاً صَغيراً، وما زِلْتُ أتدَرَّجُ فيه حتّى وصَلْتُ إلى الوِزارة، وكان ذلك ببرَكَةِ الأمانَةِ والإخْلاصِ لله وَحْدَهُ.

فهَلْ سمعتُم بوِزارَةٍ تُنالُ بعُنْقودِ عِنَب؟

-تَمَّتْ-

ابنُ هُبَيْرَة في التّاريخ

هو يَحيَى بنُ هُبَيْرَةَ بنِ محمّدِ بنِ هُبَيْرَةَ الذُّهْليُّ الشَّيْبانيّ.

كان من كِبارِ الوُزراءِ في الدَّوْلَةِ العَبّاسيةِ. وُلِدَ في دُجَيْل (في العراق) سنةَ ٤٩٧ هجرية، ودخَلَ بغدادَ في صِباهُ فقرأ عُلومَ الدّينِ وعلومَ العربيّةِ وأتْقَنَ الإنشاءَ، ثم اتّصَلَ بالخليفةِ «المُقْتَفي لأمر الله» فوَلّاهُ بعضَ الأعمالِ، فظهَرَتْ كِفايَتُه، فرفَعَ مكانَتَه حتى وَلّاهُ الوِزارَةَ ولَقَّبَهُ «عَوْنَ الدّين»، فنهَضَ بها وقامَ بأمرِها أحسَنَ قِيام. ولمّا تُوفِّي المُقتفي وبويع المُسْتَنْجِدُ بالخلافةِ أَقَرَّ ابنَ هُبَيرة على الوِزارةِ، فبَقِيَ فيها حتّى ماتَ سنة ٥٦٠ هجرية.

لم ينقَطِعْ عن العِلْمِ بعد الوزارةِ، وكانَ له مَجْلسٌ يَحضُرُه الفُضَلاءُ على اختِلافِ فُنونِهِم، وكانَ يُكرِّمُ أهلَ العلم.

صَنَّفَ كُتُباً كثيرةً منها: «الإفْصَاح عن مَعاني الصِّحَاح» و«الإشْرافُ في فقهِ الشّافعيّة» واختصَرَ «إصْلاح المَنْطق» لابنِ السِّكّيت.

ابنُ الوَزير

كانَ يا ما كان

كان في بغداد خَليفةٌ عظيمٌ من خُلَفاء العَبّاسيين اسمه «المُقْتَدِر»، وكان من وُزَرائِه وأَعْوانِه مُوَظَّفٌ كبيرٌ اسمُهُ عبدُ الله الكاتِبُ.

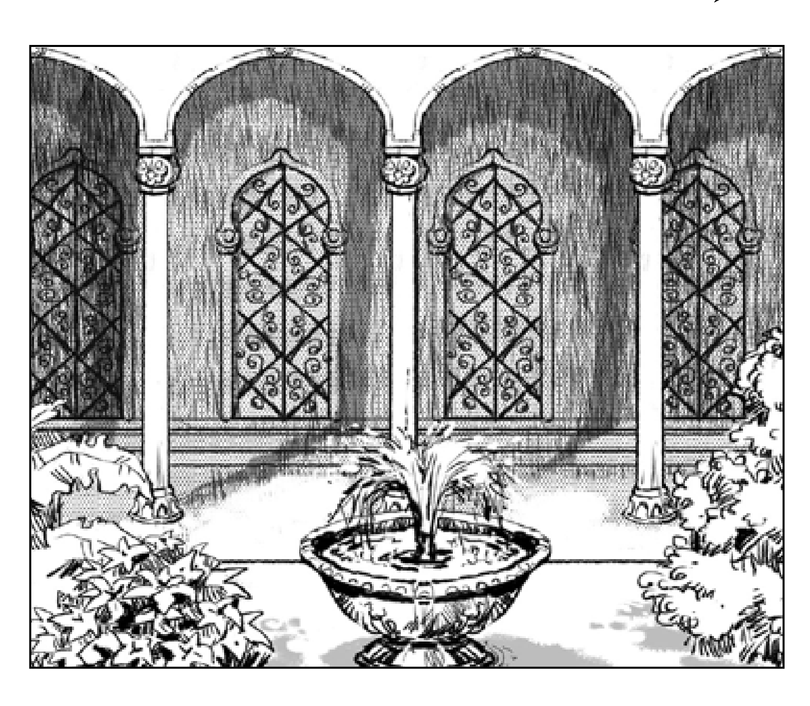
وكان الخليفةُ يُحِبُّهُ ويُقَرِّبهُ ويُعْطيهِ الجوائزَ الكثيرةَ والعَطَايا الجَسيمَةَ، فاجْتَمَعَ له من الأموالِ ما جَعَلَهُ من آحَادِ الأغنياء.

قَصْرُ بغداد

وكانت بَغدادُ يَومَئِذٍ أكبرَ مَدينةٍ على ظَهْرِ الأرضِ، وكان فيها مليونانِ من السُّكّانِ، فأرادَ عبدُ اللهِ الكاتبُ أنْ يَبْنِيَ قَصراً ليسَ فيها مِثْلُه، فجمعَ مَهَرَةَ البَنّائينَ وحَشَدَ مِئاتِ العُمَّالِ وأَنْفَقَ الأمْوالَ بغَيْرِ حِسَابٍ حتّى أنشأَ قصراً على نَهْرِ دِجْلَةَ فيهِ أربعةُ أَواوينَ مُتَقابِلة، على كلٍّ منها قَوْسٌ عالِيَةٌ مُزَخْرَفَةٌ مَنقُوشَةٌ، وجعلَ

خِلالَها بُيوتاً أنيقةً وغُرَفاً مُشْرِفَةً، وأقامَ في وَسَطِها بِرْكَةً واسِعةً من الرُّخامِ الأبيضِ والأزرقِ تَحُفُّ بها حَدائِقُ فيها من ألوانِ الزَّهْرِ وأنواعِ الوَرْدِ ما يُمتِّعُ بمَنظرِهِ العينَ ويُنْعِشُ بأَريجِهِ النَّفْسَ.

وجعلَ عند النَّهرِ مَجالِسَ بعضُها فوقَ بعضٍ، فيها المَسانِدُ والمُتَّكآتُ والأرائِكُ من الحَريرِ والدِّيبَاجِ، تتخلَّلُها الأزهارُ والأَوْرادُ والأقفاصُ فيها نَوادِرُ الطَّيرِ، وجعلَ فيها حَيْراً (أي حديقة حيوانات) فيه



غَرائبُ الوَحْشِ وعَجَائبُ الحَيَوان.

ابنُ الكاتب

وكانَت له زوجةٌ يُحِبُّها وتُحِبُّه، فماتَتْ وتركَتْ له وَلداً اسمُه خالدٌ، فمِنْ حُبِّه إيّاها لم يتزوَّجْ بعدَها، ووَقَفَ نَفْسَهُ على هذا الولدِ يقومُ عليه ويَرْعاهُ.

وكان عبدُ الله الكاتبُ رجلاً، ولكنّ حُبَّهُ لِوَلدِه وشفَقَتَه عليه غَلَبا عقلَه، فلم يُعلِّمْهُ عِلْماً ولم يُلَقِّنْهُ صِناعةً ولم يُرَبِّهِ تربيةَ الجِدِّ والحَزْم، بل رَبَّاهُ على الدَّلالِ ووضَعَ بين يَدَيْهِ الأموالَ وقال له: "اُطْلُبْ تُعْطَ". فما يَطلُبُ شيئاً إلّا أُعْطِيَهُ ولا يشتهي شيئاً إلّا نالَه، فنشأ رَخْواً ضَعيفاً لا عِلْمَ له يَدفعُهُ إلى الخَيْرِ ولا إرادةَ تمنعُه من الشرّ، ولا صَنْعَةَ تَقِيهِ الفَاقَةَ والفَقْر.

حياةُ لَهْوٍ وتَرَف

ثم ماتَ الأبُ وتركَ لولدِهِ تلك النِّعْمَةَ كلّها وذلك المالَ. وكان له –فوقَ الخزائِنِ المُمْتلِئةِ بالدّنانير

والقصرِ وما فيه من الأثاثِ والرِّيَاشِ- ضَيْعَةٌ جَليلةٌ قيمتُها ألفُ ألفِ دينار، فاجتمعَ له الشّبابُ والغِنَى والفراغُ، ولا تجتمعُ هذه الثلاثةُ إلّا جاءَ معَها الفَسادُ:

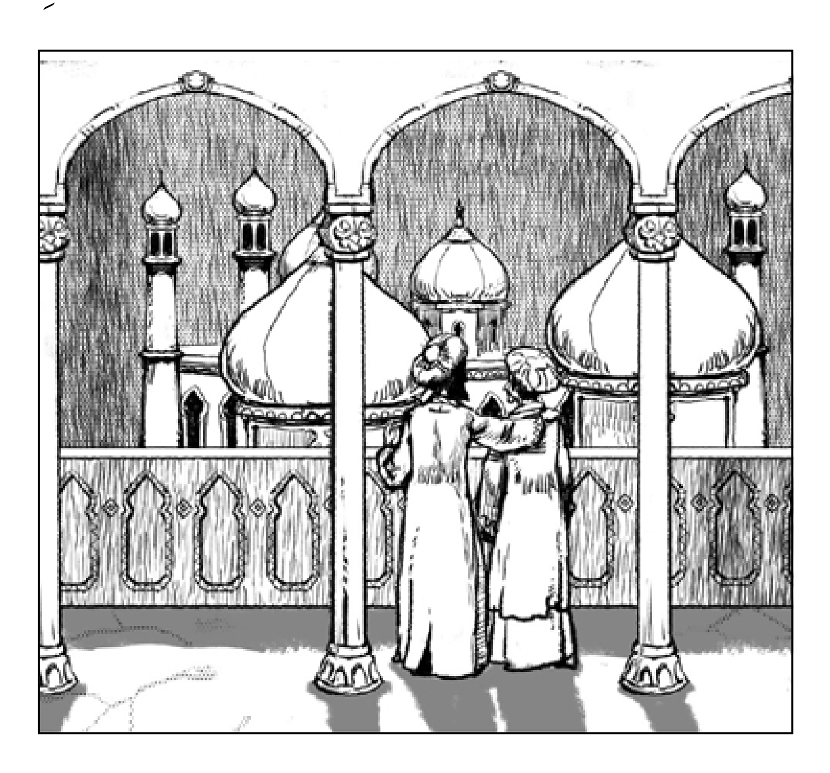
إنّ الشبابَ والفراغ والجِدَهْ   مَفْسَدَةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَدَهْ

فركِبَه إبليسُ وسَيَّرَه كما يريدُ وزَيّنَ له الفُسوقَ، فسارَ في طريقِهِ لا يَلْوي على شيء.



وأرسل إليه إبليسُ أَحَدَ أعْوانِهِ من الإنْسِ، وهو رجلٌ اسمُه زيادُ بن أبي عمرو، عَمَلُهُ أن يَنْظُرَ في النّاس، فكلّما رأى شابّاً غنيّاً لَزِمَهُ كما تَلْزَمُ العَلَقةُ جِلْدَ الإنسانِ، وابْتَزَّ مالَه كما تَمْتَصُّ العَلَقةُ الدَّمَ، وأفسدَ دينَه وخُلُقَه.

وجعَلَ هذا الشيطانُ يَفتَحُ على خالدٍ كُلَّ يومٍ باباً جديداً يَدخُلُ منه إلى جَهَنَّمَ. وكانَ من أوسَعِ



هذه الأبوابِ الغِناءُ، فأخذَ يُزَيِّنُ له سَمَاعَه وحُضورَ مجالسه. ثُمّ جَرَّهُ الغِناءُ إلى كلِّ بَلِيَّةٍ، فعلّمَه شُرْبَ الخَمْرِ، لأنّ مَجالسَ الغناء لا تَطيبُ عندَ الفُسَّاقِ إلّا بالخَمْرِ، وعَرَّفَهُ بأهْلِ هذا الفَنِّ وأصحابِهِ. وما كان أهلُهُ من الفقهاء ولا من المُحَدِّثين، ولا كان أصحابُهُ من الصالحينَ الوَرِعين، ولكنّهم من الفَسَقَةِ العابثين، مِمَّنْ لا يَعْصِمُهُمْ وَرَعٌ ولا يَزَعُهُمْ دِينٌ.

مَعَ المُغَنِّيات

وجَعَلَ يُحَبِّبُ إليه المُغَنِّيات. وكُنَّ في ذلك العَصْرِ كثيراتٍ، من كل جنسٍ ولون، وكانت التّجارةُ بِهِنَّ من أربحِ التّجارات، يشتري التاجرُ الجاريةَ بالثَّمَنِ البَخْسِ، بخمسِمئة درهمٍ أو بسبعمئة، ويختارُها من ذَوَات الجمالِ من الرومانيّات أو اليونانيّات أو التركيات أو الصَّقالِبَة (أهل البلقان)، فيعلّمُها الغناءَ والرقصَ وفُنونَ الإغراء، ولا يترُكُ درساً من دُروسِ الشرِّ إلّا لَقَّنَها إيّاهُ، ثم يَعْرِضُها للبيع، فيتزايَدُ فيها

الموسِرونَ من كِبارِ الأمراء أو سَراةِ التجّار، حتى يَصِلَ ثمنُ الواحدةِ منهنَّ أحياناً إلى مئةِ ألفِ دِرْهَم.

فانغمَسَ خالدٌ في هذه الحَمْأَةِ وأضاعَ فيها الكثيرَ من مالِهِ ومن خُلُقِهِ ومن صِحَّتِه. وهذه هي النَّتيجةُ اللازِمَةُ لتلك المقدِّمات؛ ما أقبلَ شابٌّ على النّساءِ وعلى الخَمرِ وعلى اللَهْوِ إلّا خَرَجَ بجسدٍ مريضٍ وخُلُقٍ بائرٍ وخُسْرانٍ للمالِ وللدين.



إنّ عِيشةَ اللَهْوِ والانطلاقِ مِثْلُ كأسٍ في أعلاها الشرابُ الحُلْوُ وفي أسفلِها السُّمُّ المُميتُ، فمَن اغترَّ بحَلاوَةِ أعْلاها فَعَبَّ منها بَلغَ أسفلَها فماتَ عنها.

نَدَى

وكان زيادٌ كُلّما سيَّرَهُ خُطوَةً جَديدةً في طريق الفُسوقِ أخَذَ من مالِهِ أَخْذَةً، وكان ما يأخُذهُ يَزيدُ طمَعَه، كالجائعِ الذي يَلْتَقِمُ من الطّعامِ الشَّهِيّ، كُلّما أكلَ لُقْمَةً زادَتْ شَهِيّتُه انْفِتاحاً، فهو يُريدُ أنْ يأكُلَ أكْلَةً مُشْبِعة.

ووجَدَ زيادٌ الطّريقَ الى الشِّبَع حين وجدَ مُغَنّيةً روميةً اسمُها ندى، صَبِيّةً لمْ تُكمِلْ تِسْعَ عَشْرَةَ سنةً، ولكنّها أكملَتْ تَحْصيلَها في مدرسةِ إبْليس، فخرجَتْ منها «بَغِيّاً» قارِحَةً مُتَمكِّنَةً من فُنونِ الإغراءِ عالِمةً بطريقِ الفسادِ.

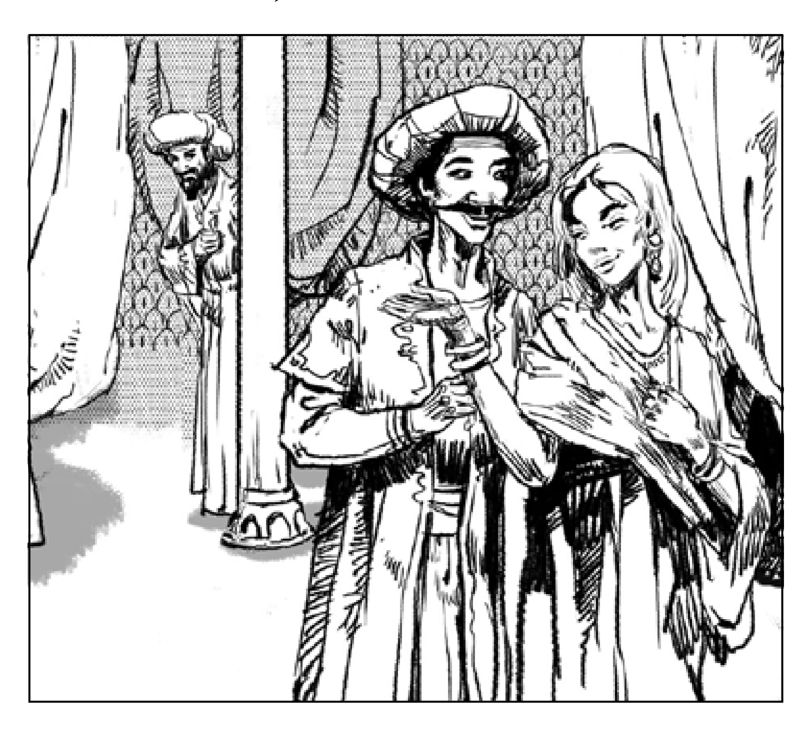
وكانت بَيْضاءَ اللونِ ولكنّها سوداءُ النَّفْس، جَميلةَ المَظْهرِ ولكنّها خَبيثةُ المَخْبَرِ، طَيّبةَ الرِّيحِ

ولكنّها مُنْتِنَةُ السّيرَة.

فعقَدَ زيادٌ معَها عَقْداً على أنْ تُغْوِيَ خالداً وتَبْتَزَّ مالَهُ، ثم يَتَقاسَمانِ ما يَحْصُلانِ عليه. وأخذَهُ إلَيْها ووَصَلَ حَبْلَهُ بحَبْلِها، ثم تركَهُ وتركَها للشّيطان.

غَرَامٌ وإفلاسٌ

رآها خالدٌ فاسْتَحْلاها، ثمّ أتاها فاسْتَخْلاها، وطلبَ ما عندَها من قُطُوفِ الجَمالِ وطلبَتْ ما عندَهُ



من فُضولِ المال.

وكانت لا تُعْطيهِ من نفسِها إلّا الشيءَ الذي يَزيدُ شَوْقَهُ إليها ورَغْبَتَه فيها، تُطْمِعُهُ ولا تُطْعِمُه، وتُعَلِّلُهُ ولا تُرْويه، وتَعِدُهُ وتُخْلِفُه. وكانت إذا أعطَتْهُ شَيئاً لا يُذْكَرُ أخذَتْ من مالِهِ المبلغَ المَذكور، وهي مِنْ وَرائِهِ لا تَرُدُّ يَدَ لامِسٍ.

وانحصرَتْ دُنياهُ فيها، فلَمْ يَعُدْ يرى جَمالاً إلّا جَمالَها ولا يجدُ له مَطلباً إلّا القُرْبَ منها.

ولم تَزَلْ به حتّى اسْتَوْهَبَتْهُ ضَيْعَتَه التي كانت تُساوي مليوناً من الدراهم، وكانت هي رأسَ مالِهِ ومَصْدَرَ رِزقِه، فوهبَها لها في لحظَةِ هُيامٍ وغَرام!

ثم عَمِلَتْ بدَلالِها المُصْطَنَع وخَفَرِها الكاذِبِ، وبابتِسامتِها التي تبدو كالأطفالِ الأغْرارِ ودُموعِها التي تُوهِمُ مَنْ يَراها أنّها بَريئةٌ مَظلومةٌ، حتّى جَرّدَتْهُ من كُلّ ما كانَ في يَدِه.

فلمّا لم يَبْقَ في يَدِهِ شَيءٌ عَمَدَ الى ما في أَيْدِي النّاسِ، فكانَ يَسْتَقْرِضُ الأموالَ الجَليلةَ، والنّاسُ يُعْطونَهُ طَمَعاً بمالِهِ، وهو يُعطيها كلَّ ما يأخُذُه، حتّى إذا أبْطَأَ على الدّائنينَ بالقَضاءِ وعَرَفوا أنّه مُفْلِسٌ خَلَعوا جُلودَ الأغْنَامِ التي كانوا يَتَراءَوْنَ لهُ فيها، وظَهَروا على حَقائِقِهم ذِئاباً ضارِيةً لها أَظْفارٌ وأَنْيابٌ، فأحاطوا به وباعوا أَثاثَ بيتِهِ، ثُمّ عَمَدوا إلى أبْوابِ دارِهِ فقَلَعوها وأخذوها، وترَكوه على التُّرابِ.



لمّا رأت هِيَ ذلكَ أعرضَتْ عنهُ وهربَتْ منه، فعادَ بلا دُنْيا ولا دِينٍ ولا حُبٍّ ولا مال! وهذه هي آخِرَةُ الطّريقِ الذي مَشَى فيه.

وتركَهُ زيادٌ، وقد كانَ يُصيبُ مِنْ مالِهِ ويَلْهُو في كَنَفِهِ، فماذا يَصنَعُ به الآنَ ولا مالَ لديهِ ولا عِلْمَ ولا دُنيا ولا دين؟

إذا كُنْتَ لا عِلْمٌ لديكَ يُفيدنا
ولا أنتَ ذو دينٍ فنَرْجوكَ للدّينِ
ولا أنتَ مِمَّنْ يُرْتَجى لِمُلِمَّةٍ
عَمِلْنَا مِثالاً مِثْلَ شَخْصِكَ مِنْ طينِ

زيارةٌ غَيْرُ مُنْتَظَرة

وكَرَّت الأيّامُ، ونَسِيَهُ زيادٌ حتّى كأنّه لمْ يَكُنْ يَعرِفُه، وانْصَرَفَ إلى غَيْرِهِ مِن الحَمْقَى الذين يُضَيِّعون أَمْوالَهُم في اللَهْوِ والغَرامِ، يَتَعلَّقُ بهم ويَسْلُبُهم أموالَهم.

حتّى كانَتْ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايا الرّبيع. وكان زيادٌ راجِعاً مِن نُزْهَةٍ في الزّوارِقِ التي تَميسُ على صَفْحَةِ دِجْلَةَ حِيالَ القُصورِ التي تَلوحُ ظِلالُها في مائِها السّاكِنِ، فكأنّها تَسْتَحِمُّ في الحُلْم أو تَحْلُمُ بالاسْتِحْمام. ودِجْلةُ تَجري مُعْرِضةً، تُحَدّثُ نفسَها حَديثَ الحَياةِ والموتِ، وتَعْرِضُ لِنَفسها ذِكرَياتِ حياتِها الطويلةِ التي امتَدَّتْ مليون سنةٍ، رأَتْ فيها مِن عِبَرِ الدَّهْرِ وأحْداثِ الدُّنيا ما لا تَتَّسِعُ له التَّواريخُ.

ومَرَّ زيادٌ من أمامِ دارِ خالدٍ فخَطرَ على بَالِهِ أنْ يَزورَهُ ويرَى ما حالُه.

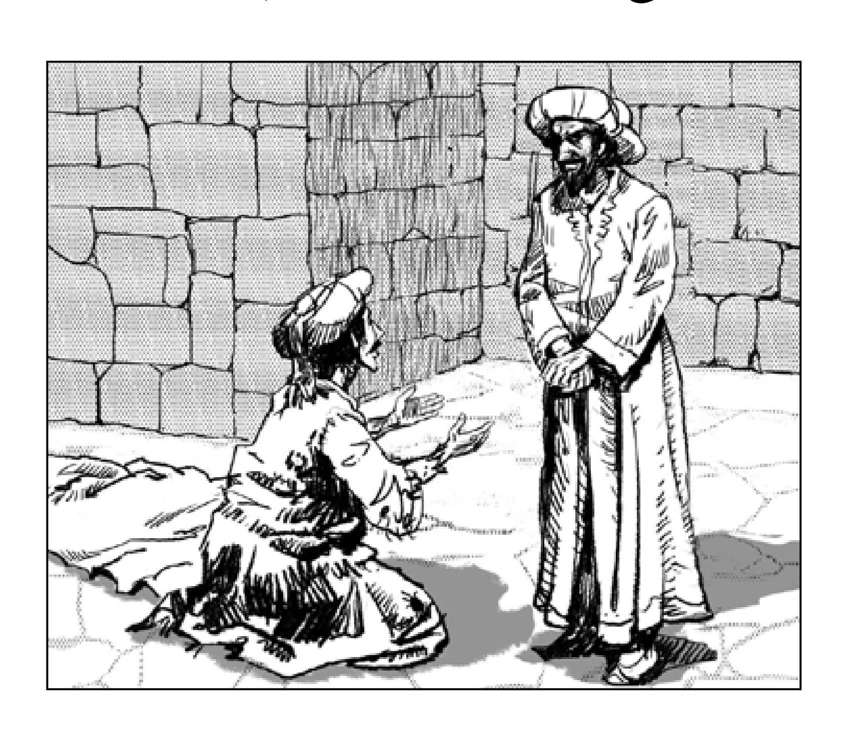
ودخلَ، فإذا مكانَ ذلك البابِ الذي كان يَزدَحِمُ بالخَدَمِ والحُجّابِ مَجازٌ خَرَابٌ فيهِ الوَحْلُ والتُّرابُ، وإذا الصَّحْنُ الذي كانَ فيه الوَرْدُ والفُلُّ والرَّيْحانُ قد غدَا كأنّه صَحْراءُ، وإذا تلكَ الحَدائِقُ المُخْضَرَّةُ المُزْدَهِرَةُ التي كانت تتَحَدَّرُ شارِعةً إلى دِجْلة، والتي طالَما شَهِدَتْ مِنْ مَجالِسِ اللَهْوِ والطَّرَبِ وكانَت

مَجْلَىً للجَمالِ والفُنون، قد صارَتْ تِلالاً مُوحِشاتٍ.

ولم يَجِدْ في الدّارِ كلِّها إلّا غُرْفَةً مُنْزَوِيَةً، فدَخَلَها فإذا خالدٌ فيها، وإذا هُوَ نائمٌ بِأَسْمَالٍ بالِيةٍ، وليسَ تحتَهُ إلّا فِراشٌ قد بَلِيَ وَجْهُهُ وبَدَا قُطْنُه، وفوقَهُ لِحافٌ وَسِخٌ مُمَزَّقٌ، وما في البيتِ شَيءٌ مِن الفَرْشِ.

قالَ: أوَ بلَغَتْ بكَ الحالُ إلى ما أرَى؟

وتَوَجَّعَ لهُ وسألَه: هَلْ مِن حاجَةٍ يَقْضيها له؟



قال: نعم.

فحَسِبَ أنّه يَطلُبُ منه مالاً أو يَسْألُهُ مَعونةً، فإذا هو يَطلُبُ منه أنْ يَأتِيَهُ بِثياب حَسَنةٍ وأنْ يَصْحَبَهُ إلى ندى لِيزورَها.

فعَجِبَ منه إذْ يَذكُرُها وهوَ على هذه الحالِ، وسألَهُ: أمَا نَسِيتَها؟

قال: لا، مَا نَسيتُها إلّا أنْ أنَسى رُوحي! إنّي لا أتَمَنّى من دُنْيايَ إلّا قُرْبَها، ولو عُرِضَ عليَّ الغِنَى الذي كنتُ فيه وأَضْعافُهُ معه على أنْ أخْسَرَها لَفَضَّلْتُ لِقاءَها ساعةً على ذلك الغِنَى كُله.

رَقَّ له قَلْبُ زيادٍ، فأخذَهُ إلى داره، وأطعَمَهُ وأدْخَلَهُ الحَمّامَ، ثم بَخَّرَهُ وألْبَسَهُ أجْمَلَ ثِيابهِ وأركَبَهُ على دَابَّةٍ فارِهَةٍ وذهبَ به إليها.

فلمّا رأَتْهُ حَسِبَتْ أنْ قد عادَ إليه مالُهُ، فأقبَلَتْ وعلى وَجْهِها ابتِسَامَةُ الطّفولَةِ المُصْطَنَعَةُ التي كانت

تَخدَعُهُ بها. وراحَتْ تعتَذِرُ إليه وتَحْلِفُ له أنّها ما زالَتْ على العَهْدِ، ما تركَت الوُدَّ ولا تعَمَّدَت الصَدَّ، ولكنّها أُكْرِهَتْ عليه.

وسَلَّتْ في وجهِهِ سِلاحَ المرأة الذي لا يَصْمُدُ له رَجُلٌ، وهو دَمعُها! وأظهَرَتْ الذُّلَّ وتَصَنَّعَت الدَّلَّ، وأغْرَقَتْهُ في سَيْلٍ من الأكاذيبِ لم يَعُدْ يَمْلِكُ مَعَهُ دَفْعاً ولا مَنْعاً ولا يَستطيعُ ثَباتاً، فَصَدّقَ.



وهذا شأنُ العُشّاقِ جَميعاً؛ يَكونُ أَحَدُهُمْ عاقِلاً لَبيباً، فاذا جاءَ الحُبُّ أذْهَبَ العقلَ وطَمَسَ القلبَ، فصَدَّقَ كُلَّ ما يَقولُ المَحْبوبُ ما دامَ معه الدَّمْعُ والجَمالُ، ولو كانَ الذي يقولُهُ من المُستحيلِ!

أَسْكَرَتْهُ خَمْرَةُ جَمالِها، فوَثِقَ بها واطْمأَنَّ إليها، وكشفَ لها المَسْتورَ من حالِهِ وشرحَ لها ما هُوَ فيهِ وما صارَ إليه.



فلمّا سَمِعَتْ ذلك نزعَتْ عن وَجهِها نِقابَ الطُّهْرِ الكاذِبِ والحُبِّ المُدَّعى، وعادَتْ كالْحَيَّةِ النّاعِمَةِ المَلْمَسِ التي في أنْيابِها السُّمُّ الزُّعَافُ، وتنكَّرَتْ له وقالت: أخشَى أنْ تَراكَ سِتِّي وأنتَ هنا، فاخْرُجْ إلى الرَّحْبَةِ لأكَلِّمَك مِنَ النّافذةِ.

فخرَجَ مُتَعَثِّراً، ووقَفَ تحتَ الرَّوْزَنَةِ (النّافذة)، وإذا بِها تَمُدُّ يدَها فتُلقي عليهِ مَرَقَةَ سِكْباجٍ وتَضْحَكُ



منه ساخِرةً به.

فلمّا رأى ذلك بَكَى وقال: يا زيادُ، أتَرى أمْري وصَلَ إلى هذا الحَدِّ؟ أُشْهِدُ اللهَ وأُشْهِدُكَ أنّي تائِبٌ إلى الله مِنها ومِنْ جَميعِ المَعاصي.

فَضَحِكَ عليه وقال له: وماذا تَنْفَعُكَ التَّوْبَةُ الآنَ وقد صِرْتَ مَسْخَرَةً؟

وأَخَذَ ثِيابَهُ وتَرَكَه.

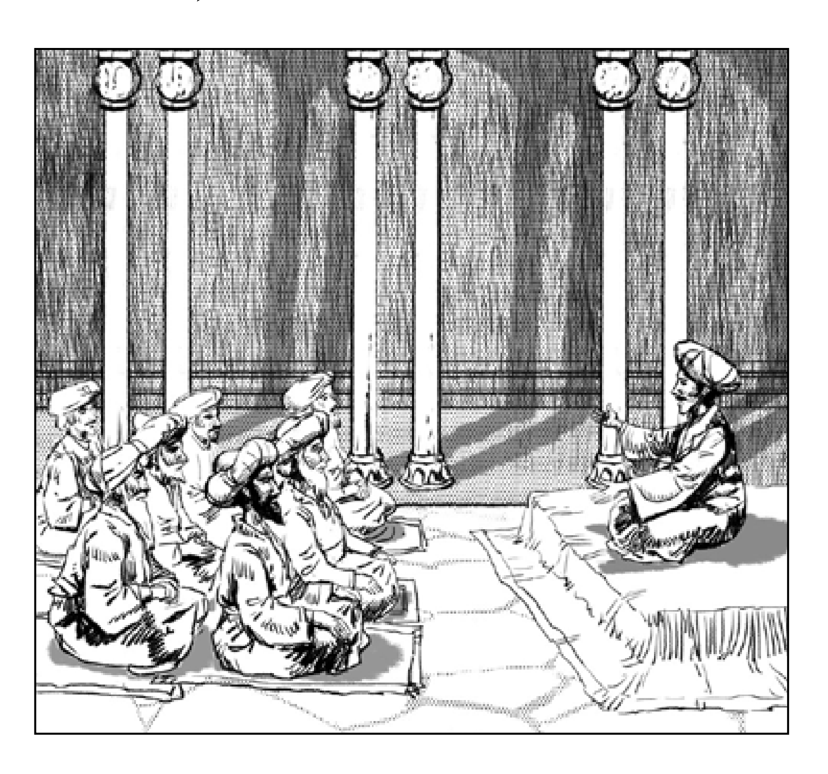
بعدَ وقتٍ طويل

قال زيادٌ: ومَرَّ دَهْرٌ طَويلٌ، خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً، ما عَرَفْتُ فيها خَبَرَهُ ولا سألْتُ عنه ولا فكَّرْتُ فيه. وكنتُ يوماً عندَ بابِ خُراسان، فوجَدْتُ ازدِحاماً على مَسْجِدٍ هناك، فدخلتُ أنظرُ: عَلامَ يَزْدَحِمُ النّاسُ؟

فوجَدْتُ حَلْقَةً واسِعةً، وسَمِعْتُ واعِظاً حَسَنَ اللَهْجَةِ حاضِرَ القلبِ غَزيرَ العِلْمِ.

وكانَ يتكلّمُ في التَّوْبَةِ ويشرَحُ قولَه تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾. فقرَعَ أُذُني مِنْهُ ما ملأَ قَلبي نَدَماً على ما كانَ منّي، وأحسَسْتُ الدَّمْعَ يَنْبَجِسُ من عَيْنَيَّ ويَقْطُرُ من لِحيتي، وكان النّاسُ يُعْلِنونَ التَّوْبَةَ ويَجْأَرونَ بالاسْتِغْفارِ والدُّعاء.

وأحْسَسْتُ من نَفسي رَغْبَةً في الخَيرِ لمْ أعْهَدْها



فيها من قبلُ، فلَمّا انْقَضَت الحَلْقةُ دَنَوْتُ من الشَّيْخِ، فاذا هو حَسَنُ السَّمْتِ مُطْرِقُ العَيْنِ سَريعُ الدَّمْعَةِ، فغضَضْتُ من بَصري حياءً منه، ولكنّي شعرتُ كأنّي أعرِفُه، فجعلتُ أَسْتَرِقُ النّظَرَ إليه، فاذا هو خالد!

ومَشَى النّاسُ وراءَه فمَشَيْتُ، حتّى انتهى إلى دارِهِ تلك التي أعرِفُها، فدَخَلَها ودَخلوها مَعَه، وتَبِعْتُهُمْ، فإذا هي قد رُمِّمَتْ وجُصِّصَتْ وبُنِيَتْ فيها بُيوتٌ كثيرة، في كلّ بَيْتٍ منها جماعةٌ من طَلَبَةِ العِلْمِ، وفي زاوِيَةِ الصَّحْنِ منزلٌ صغيرٌ، أدرَكْتُ أنّه منزله. فأقبلتُ فعَرَّفْتُه بنفسي، وخَبَّرْتُهُ أنّي سَمِعْتُ وَعْظَهُ، وأنّي أُحِبُّ أنْ أتوبَ على يَدَيْهِ.

فأقبلَ عَلَيَّ مُرَحِّباً بي وأدخَلَني معه. ولمّا أكَلْنا وانْصَرَفَ النّاسُ هَمَمْتُ أن أسألَهُ عن حالِهِ، ولكنّي اسْتَحْيَيْتُ منه لِمَا رأيتُ من حاله، ففَهِمَ عنّي وراح يحدّثني.

قالَ: أَتَذْكُرُ يومَ صنَعَتْ بي تلك الفاسِقَةُ ما صَنَعَتْ؟ لقد امتلأتُ أَلَماً وتوَجَّهْتُ إلى الله بِقَلْبٍ صادقٍ، فأَشْهَدْتُهُ وأشهَدْتُك على أنّي تُبْتُ عنها.

وأخَذْتَ أنتَ ثِيابَكَ وانصرَفْتُ أنا إلى بيتي على شَرِّ حالٍ، فأَرَدْتُ البقاءَ في الدّارِ فما وَسِعَتْني الدّارُ، وشَعَرْتُ كأنّي مَخْنوقٌ يريدُ مُتَنَفَّساً، فمَشَيْتُ على غَيْرِ هُدَىً، حتّى انتهيتُ إلى المَسْجِدِ الذي رأيتَني فيه. ولم أكُنْ من أهْلِ المَساجِدِ ولا كانَ من دَأبي دُخولُها، ولكنّي أحسَسْتُ كأنّ دافعاً يَدفعُني إليه، فدخلتُ.

وكانَ في المسجدِ شيخٌ أبيَضُ اللِحْيَةِ مُشْرِقُ الوَجهِ وحولَهُ جَماعةٌ يَقرؤون، فسَلَّمْتُ وقعَدْتُ. ولم أفهَمْ مِمّا يَقرؤون شيئاً، ولكنّي وجدتُ له راحةً في قلبي، ووجَدْتُهُ قد نَزَلَ على كَبِدي بَرْداً وسَلاماً.

وقام الطَّلَبَةُ، وقُمْتُ مُتَرَدِّداً، فلَحَظَ الشيخُ

ذلك منّي فاسْتَدْناني، واسْتَخْرَجَ بِلُطفِه وصَفاءِ رُوحِهِ مَكْنونَ سِرّي مِنْ صَدري، فشرَحْتُ له أمري.

فسرَدَ عَلَيَّ من الآياتِ والأحاديثِ ما طَمْأَنَني، وعرضَ عَلَيَّ بَيتاً في المسجدِ أُقيمُ فيهِ قريباً من دارِه، وجعلَ يُفيضُ عَلَيَّ مِن عِلْمِهِ الكثيرِ ومن مالِهِ القليلِ.

وأقبَلْتُ على العِلْمِ برَغْبَةِ المُشْتاقِ المَحْرومِ، فتَقَدَّمْتُ الأقرانَ حتى صِرْتُ مُعيدَ الحلقةِ، وألزمَني صُحْبَةَ أحدِ التُّجّارِ فتعلَّمْتُ منه طُرُقَ التّجارة، وتقَدَّمْتُ فيها مِثلَ تَقَدُّمي في العلمِ. وأمرَ أحَدَ تلاميذِه فأقْرَضني ألْفَ دِرْهَمٍ، فتاجَرْتُ فيها فرَبِحْتُ ورَدَدْتُ إليهِ مالَهُ، وفتَحَ الله لي أبوابَ الرِّبْحِ ورزقَني من حيثُ لا أحْتَسِبُ، حَتّى كَثُرَ المالُ في يدي.

وتزَوَّجْتُ ابْنَةَ الشَّيخِ، وكانَتْ -بحَمْدِ الله- على الغايةِ من الجَمالِ والكَمالِ، ورُزِقْتُ منها بَنينَ وبناتٍ، فجَدَّدْتُ الدّارَ وجعَلْتُها مَدرَسةً لِطَلَبِ العِلْمِ، وقَنِعْتُ بهذه الزّاوِيَةِ منها. وإنّي لأذْكُرُ أحياناً ما كنتُ فيه وما

صِرْتُ إليه فأقول: «الحمد لله»، أسْتَخْرِجُها من قَرَارَةِ القَلْبِ لا مِنْ طَرَفِ اللِسانِ.

لقد تواتَرَتْ عَلَيَّ النِّعَمُ، وكانَ من أعْظَمِها أنّي عَرَفْتُ حَقيقةَ العِشْقِ. لقد كنتُ أتبَعُ تلك الفاسِقَةَ مِثْلَ كلبٍ مَعْصوبِ العَيْنينِ، وكنتُ لها عَبْداً، أقدِّمُ إليها في لَحْظَةٍ ما يَكادُ يَعْجِزُ عن جَمْعِهِ الرّجُلُ الدّائِبُ



الكَسُوبُ في عَشْرِ سِنين!

لقد كنتُ أعمَى فرَجَعَ اللهُ لي بَصَري، فرأَيْتُ ضِياءَ الشَّمْسِ ونورَ القَمَرِ وبَهاءَ الرَّوْضِ وجَمالَ الزَّهْرِ، بل لقَدْ رَأيْتُ ما هو أجْمَلُ من ذلك كُلِّه وأمْتَعُ وأَحْلى، وهو حَلَقاتُ العِلْم. إنّها لَذَّةُ القُلوبِ التي لا تَفْنَى، على حينِ تَفْنَى لَذائذُ الحَواسِّ كُلُّها.

وصِرْتُ أَسْلُكُ سَبيلَ المالِ الحَلالِ وسَبيلَ العلم، والسَّبيلَ التي هي خَيْرٌ من هذا كُلِّه، سَبيلَ الله، وقد كنتُ لا أعْرِفُ إلّا السَّبيلَ إلى دارِها.

لقد عَرَفْتُ حَقيقةَ الحُبِّ، فرأَيْتُ العَاشِقَ أَعْمَى لأنّه لا يَرَى في الدُّنْيا إلّا جَمالَ المَحْبوبِ، أَصَمَّ عن كُلِّ صَوْتٍ إلّا صَوْتَهُ، كَسيحاً مُقْعَدَاً لا يَقْدِرُ أنْ يَمْشِيَ في طَريقٍ إلّا الطَّريقَ إليه.

إنّ المُحِبّينَ هُمُ المُعَذَّبونَ في الأرضِ، يَجوعونَ لِيَشْبَعَ المَحْبوبُ، ويَسْهَرونَ لِيَنامَ، ويَفْتَقرونَ لِيَغْتَنِيَ، ويَمْرَضونَ لِيَصِحَّ، قَدْ فَنِيَتْ رَغَباتُهُمْ في رَغْبَتِهِ

وأفكارُهُمْ في فِكْرِهِ، وذابوا فيهِ فلَمْ يَبْقَ لَهُمْ كِيانٌ.

فالآنَ عادَ إلَيَّ كِياني ورجَعَتْ لي حُرِّيَّتي، وزالَتْ الغِشاوَةُ عن عَيني، ومَنَحَني اللهُ مِنْ حُبِّي لِزَوجَتي وأولادي ما هُوَ أعْظَمُ وأبقَى من ذلك الحُبِّ المُحَرَّم.

لقد أنفَقْتُ مالي أبتَغي لَذَّةَ نَفسي في مَعصِيَةِ الله، فأذْهَبَ اللهُ المالَ وحَرَمَني لَذَّةَ النَّفْسِ، فلمّا أَطَعْتُهُ أعطاني المالَ، وأعطاني اللَذَّةَ، وأعطاني نِعْمَةَ الدُّنيا، وأرجو -مِن كَرَمِهِ- أن يُعطِيَني لَذَّةَ الدّارِ الآخِرَة.

-تمّت-

الفهرس

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

من آثار المؤلف

(١) أبو بكر الصديق	١٩٣٥
(٢) قصص من التاريخ	١٩٥٧
(٣) رجال من التاريخ	١٩٥٨
(٤) صور وخواطر	١٩٥٨
(٥) قصص من الحياة	١٩٥٩
(٦) في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
(٧) دمشق	١٩٥٩
(٨) أخبار عمر	١٩٥٩
(٩) مقالات في كلمات	١٩٥٩
(١٠) من نفحات الحرم	١٩٦٠
(١١) حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
(١٢) هتاف المجد	١٩٦٠
(١٣) من حديث النفس	١٩٦٠
(١٤) الجامع الأموي	١٩٦٠
(١٥) في أندونيسيا	١٩٦٠
(١٦) فصول إسلامية	١٩٦٠
(١٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠

(١٨) فِكَر ومباحث	١٩٦٠
(١٩) مع الناس	١٩٦٠
(٢٠) بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
(٢١) تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
(٢٢) فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
(٢٣) ذكريات علي الطنطاوي (١-٨)	١٩٨٥-١٩٨٩
(٢٤) فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
(٢٥) فصول اجتماعية	٢٠٠٢
(٢٦) سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢
(٢٧) نور وهداية	٢٠٠٦
(٢٨) فصول في الثقافة والأدب	٢٠٠٧
(٢٩) فصول في الدعوة والإصلاح	٢٠٠٨
(٣٠) البواكير	٢٠٠٩
(٣١) الذكريات: الفهارس والصُّوَر	٢٠١١
(٣٢) كلمات صغيرة	٢٠١٦
(٣٣) أعلام من التاريخ	٢٠١٩